الفصل الثالث

المنظور العلمى والإعلامى فى الإسلام

كأحد ركائز البعث

أولاً : الجانب العلمى ومضامينه فى الإسلام.

ثانيـاً: العلم وحضارة المسلمين بين الأمس واليوم.

ثالثًا : الجانب الإعلامى ومضامينه فى الإسلام.

المنظور العلمى والإعلامى فى الإسلام

كأحد ركائز البعث

أولاً : الجانب العلمى ومضامينه فى الإسلام :

عنى الإسلام بالعلم، وجعل طلبه فريضةً على كل مسلم ومسلمة، وعده جهادًا فى سبيل الله، ورفع من شأن أهله، وأدخلهم فى مقام الخشية.

ولم يكن العلم الذى عناه الإسلام قاصرًا على ما وقر فى نفوس البعض من العلم الدينى فحسب، وإنما هو العلم بمفهومه العام، ومدلوله الشامل الذى يشمل شتى العلوم والمعارف بكل أنواعها، يقول الله عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر: ٢٧-٢٨]. وقد جمعت الآيتان الكريمتان علوم الكون المختلفة، وعدتا دراسة هذه العلوم سبيلاً لخشية الخالق سبحانه[١] .

ودعوة الإسلام إلى العلم ليست فى حاجة إلى دليل، ويكفى أن نقرر أن لفظ (العلم) ورد بمشتقاته وتكراراته فى (٧٧١) موضعًا من القرآن الكريم[٢*] يقول الحق سبحانه: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ [آل عمران :٧]. ويقول: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨]. ويقول: ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٧٦]. ويقول: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٨٥]. ويقول: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة : ١١].

---

(١) جدير بالإشارة توضيحًا لهذه الجزيئة المهمة أن العلم النافع فى الإسلام هو الذى يتجه إلى تكوين الإنسان الصالح، ويقوى صلته بخالقه، ويساعده على القيام بواجبات الخلافة، أكان هذا العلم دينيًا أو دنيويا. المهم أن يعم نفعه لصالح الأمة، ويكون هدفه هداية الإنسان، وإقامة أمر الدين.

(*) هذا حصر لألفاظ (العلم) فقط فى القرآن الكريم، لكننا نقرر أن ألفاظًا مشابهة كالفقه والتدبر والتعقل والتأمل والتبصر والنظر وما يتصل بمعانيها ووسائلها تكررت فى نحو ألفى آية قرآنية كريمة.

ولا نجد أدل على تشريف القرآن الكريم للعلم، وبيان درجته من الآيـة الكريمة ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ [سبأ : ٦]. إذ تقرر أنـه بالعلم النافـع يهتدى الإنسان إلى الصراط المستقيم، آخذًا فى التدبر الصحيح ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [ص : ٢٩].

وبهذا العلم؛ الذى هو منحة ربانية عجيبة منحها الله للإنسان تفـتح أسرار الكـون ويبـدو إعجـاز الخـالق ﴿ وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٥].

ولذا فـإن القـارئ لآيـات الذكـر الحكيـم يجـد حثًا على الاستــزادة مــن العلم ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴾ [طه : ١١٤]، وعلى التأمل والبحث والنظر فى ملكوت الله ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [يونس: ١٠١]. ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ۝١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ۝١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠]. . وعلى التفكر والتدبر ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقـرة : ٢١٩]. ﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡۗ ﴾ [الروم: ٨] . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٢]. ﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر: ٢١].

وحث على التذكر والتبصر ﴿ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢١]. ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [الرعد: ١٩]. ﴿ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٧]. ﴿ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٩]. ﴿ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الواقعة: ٦٢].

كما يجد دعوة إلى التعقل واستنارة البصيرة ﴿ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [البقـرة: ٧٣]. ﴿ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٨]. ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ [الرعـد: ٤]. ﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ ﴾ [الحـج : ٤٦]. ﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ

قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾ [المؤمنون: ٨٠]. ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم: ٢٨]. ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف: ٣]. (*).

ولا يخفى على القارئ أن الدعوات القرآنية سابقة الذكر لن يقوم بواجبها وحقها إلا أولوا الألباب (الذين ورد ذكرهم فى ست عشرة آية قرآنية) الذين يتأملون فى الكون، ويلتمسون العبرة، ويحسنون التدبر فى آيات الله، ويقودهم هذا إلى أداء العبادة الصحيحة، والقنوت لله تعالى، والحذر منه، ورجاء رحمته.. وهذه المعانى المتقدمة نقرأها عندما نطالع بعض هذه المواضع فى قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٩]. ﴿ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة: ١٩٧]. ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ٧]. ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الرعد: ١٩]. ﴿ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [إبراهيم: ٥٢]. ﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص : ٢٩]. ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ٩]. ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الطلاق: ١٠].

وتأكيدًا لدعوة أولى الألباب للتأمل والتعرف على جلال الله وعظمته، وبديع صنعه ومحكم آياته ورائع بيانه؛ فإننا نجد أن القرآن الكريم لا يدع موطنًا فى الكون دون أن يطوف بالإنسان خلاله، ويستثير فيه النظرة التأملية، ويلفت أصحاب العقول الراجحة إلى المنهج الصحيح فى التعامل مع الكون ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]. وإعادة النظر فى ظواهر الكون والبحث عن حكمتها وتصاريفها؛ يُظهر لنا حقائق نورانية، ويفتح عين البصيرة، ونزداد من الله هداية

(*) الآيات التى ورد فيه ذكر (العقل) فى القرآن الكريم المأخوذ من الفعل (عقل) هى تسع وأربعون آية؛ تدعو جميعها إلى إعمال العقل فى جنبات الكون؛ ولذا نلاحظ ارتباطها بكلمة (آية) و(آيات) فى ثلاث عشرة آية فى مثل ﴿ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ وهذا أمر له دلالته؛ فآيات الله فى كونه وفى قرآنه تستنفر العقل الواعى لكى يدرك الله وإعجازه وإبداعه فى هذه الآى.

ويقينًا، وسبيل ذلك بإعمال آليات الإدراك، واستخدام الحواس استخدامًا وظيفيًا صحيحًا ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨]. ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٨]. ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [النور: ٤٤].

ووفق المنهج الإسلامى فإننا نجد أن العلم تتسع دائرته؛ ليشمل المعرفة بكل ما هو نافع من الأمور. إنه المعرفة بالكون، وبما وراء الكون، بالوجود المادى، وبالوجود الروحى، إنه العلم بمعانيه الثلاثة(العلم العقلى – العلم الطبيعى – علم الوحى) وعندئذ فإن النظرة المعرفية الإسلامية تجد الأخذ بعلوم الفلك والطبيعة والطب والجغرافيا.. الخ سبيلاً للهداية والتفقه كشأن العلوم الدينية مثل الفقه والتوحيد والحديث والسير.. الخ.

ووفقا للمنهج ذاته نجد أن دعوة الإسلام للعلم وبيان فضله جاءت تقريرًا مفصلاً، يقول رسول الله ﷺ: « من يرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين»[١]، وقال فى تفضيل العلم على العبادة «فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابى»[٢]، وقال: « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»[٣]، وفى فضل طلب العلم يقول الرسول الكريم ﷺ: «من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا سلك الله به طريقًا إلى الجنة»[٤] .

وقوله ﷺ فى بيان منزلة العلم وأهله: « الدنيا ملعونة، وملعون ما فيها، إلا ذكر الله تعالى، وما والاه، وعالمًا أو متعلمًا»[٥]، وقال: « من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع»[٦]، وقال: «إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهما

(١) متفق عليه عن معاوية ﷺ .
(٢) رواه الترمذى من حديث أبى أمامة. قال: حديث حسن صحيح.
(٣) من حديث طويل رواه أبو الدرداء ﷺ وإسناده حسن.
(٤) من حديث رواه أبو الدرداء وإسناده حسن.
(٥) رواه الترمذى عن أبى هريرة ﷺ وقال: حديث حسن.
(٦) رواه الترمذى عن أنس ﷺ . وقال حديث حسن.

وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»[١] وفى بيان أجر العالم يقول ﷺ: « فو الله لأن يهدى الله بك رجلاً واحدًا خير لك من حمر النعم»[٢] .

ويقول: « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا»[٣]، وفى كونه مجالاً للغبطة يقول ﷺ: «لا حسد إلا فى اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها»[٤]، وفى إبراز خطورة كتم العلم يقول ﷺ: « من سئل عن علم فكتمه أُلجم بلجام من نارٍ»[٥]، وفى الربط بين العلماء وصون العلم يقول ﷺ :« إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا من الناس. ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالمًا اتخذ الناس رُءوسًا جهالاً، فسُئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا أو أضلوًا»[٦]، وفى الحض على بذل العلم وتعليمه للناس يقول ﷺ: « إن الله سبحانه وملائكته وأهل سمواته وأرضه حتى النملة فى جحرها، وحتى الحوت فى البحر ليصلون على معلم الناس الخير»[٧]، ويقول: « أفضل الصدقة أن يتعلم المرء المسلم علمًا ثم يعلمه أخاه المسلم»[٨]، ويقول: « العالم والمتعلم شريكان فى الخير، وسائر الناس لا خير فيه»[٩]، ويقول أيضًا ﷺ: « إن مثل العلماء فى الأرض كمثل النجوم يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر، فإذا انطسمت النجوم أوشك أن تضل الهداة».

وفى ترغيبه ﷺ فى طلب العلم وترحيبه بأهله يأتيه صفوان بن عسال المرادى ﷺ ويقول له : يا رسول الله جئت أطلب العلم، فقال:«مرحبًا بطالب العلم؛ إن طالب العلم تحفه الملائكة بأجنحتها، ثم يركب بعضهم بعضًا حتى يبلغوا السماء الدنيا من محبتهم لما يطلب»[١٠] وقوله ﷺ لصاحبته: « أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلم أو يقرأ

(١) رواه أبو داود والترمذى عن أبى الدرداء ﷺ .
(٢) متفق عليه عن سهل بن سعد ﷺ .
(٣) رواه مسلم عن أبى هريرة ﷺ .
(٤) متفق عليه عن عبد الله بن مسعود ﷺ .
(٥) رواه أبو داود الترمذى عن أبى هريرة ﷺ .
(٦) متفق عليه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما.
(٧) رواه الترمذى عن أبى الدرداء ﷺ .
(٨) رواه ابن ماجة.
(٩) رواه أحمد عن أنس بن مالك ﷺ .
(١٠) رواه أحمد والطبرانى وابن حبان والحاكم.

آيتين من كتاب الله خير له من ناقتين، وثلاث خير له من ثلاث، وأربع خير له من أربع، ومن أعدادهن من الإبل»[1] .

ويدعونا الإسلام إلى العمل بالعلم، يقول الحق سبحانه ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا ﴾ [الجمعة: ٥]. ولذا يقول الرسول الكريم ﷺ: « من تعلم العلم لأربع دخل النار؛ ليباهى به العلماء أو يمارى به السفهاء، أو يقبل به وجوه الناس إليه، أو يأخذ به من الأمراء المال والحرمة والجاه والمنزلة»[2] والعمل بالعلم يقتضى البعد عن الرياء والشهرة، وابتغاء وجه الله تعالى؛ فمن حديث طويل عن أول ثلاثة تسعر بهم النار يوم القيامة قوله ﷺ :«فأول من يُدعى به رجل جمع القرآن، ورجل قتل فى سبيل الله، ورجل كثير المال. فيقول الله للقارئ: ألم أعلمك ما أنزلت على رسولى؟ فيقول: بلى يارب، قال: فماذا عملت فيما علمت؟ قال : كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار؛ فيقول الله له: كذبت. وتقول الملائكة له: كذبت، ويقول الله له: بل أردت أن يقال : فلانا قارئ»[3] ولذا يقول الإمام أبو حامد الغزالى: " الناس كلهم هلكى إلا العالمون، والعالمون كلهم إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون".

ونجد التأكيد الكريم من رسول الله ﷺ على مجالسة العلماء، وحضور مجالس العلم ففى تعقيبه ﷺ على هؤلاء الثلاثة الذين سد أحدهم فرجة فى الحلقة، وجلس الآخر خلفهم، وأدبر الثالث ذاهبًا فقال : « ألا أخبركم عن النفر الثلاثة، أما الأول فأوى إلى الله فأواه الله، وأما الثانى فاستحيا من الله أن يؤذى الناس فاستحيا الله منه، وأما الثالث فأعرض، فأعرض الله عنه»[4] وقوله ﷺ فى تفضيله لمجلس العلم على مجلس الذكر: «كلا المجلسين على خير، وأحدهما أفضل من صاحبه، وأما هؤلاء فيدعون الله ويرغبون إليه إن شاء أعطاهم، وإن شاء منعهم. وأما هؤلاء فيتعلمون ويعلمون الجاهل، وإنما بعثت معلمًا»[5] وكان عبد الله بن مسعود ﷺ يقول: المتقون سادة، والفقهاء قادة، ومجالستهم زيادة[6] .

---

(١) رواه مسلم عن عقبة بن عامر ﷺ .
(٢) رواه أحمد والترمذى: ووجوه الناس أى عظماؤهم.
(٣) أخرجه الترمذى عن عقبة بن مسلم ﷺ وهو جزء من حديث طويل.
(٤) رواه أصحاب السنن بإسناد جيد.
(٥) أخرجه ابن عبد البر فى جامع العلم عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما.
(٦) أخرجه الطبرانى فى الكبير.

وإذا كنا أشرنا للأدب النبوى فى أمور متصلة بالعلم وفضله؛ فإن الصحابة رضى الله عنهم تركوا لنا آثارًا عظيمة فى الباب ذاته، فمن ترغيب معاذ بن جبل فى العلم يقول : تعلموا العلم، فإن تعلمه لله تعالى خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلم صدقة، وبذله لأهله قربة؛ لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار (سبل) أهل الجنة، والأنس فى الوحشة، والصاحب فى الغربة، والمحدِّث فى الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء، يرفع الله تعالى به أقوامًا، ويجعلهم فى الخير قادة وأئمة، تقتبس آثارهم، ويقتدى بفعالهم، وينتهى إلى رأيهم، ترغب الملائكة فى خُلتهم، وبأجنحتها تمسحهم، يستغفر لهم كل رطب ويابس حتى الحيتان فى البحر وهوامه؛ لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصباح الأبصار من الظلم، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار، والدرجة العليا فى الدنيا والآخرة، والتفكر فيه يعدل بالصيام، ومدارسته بالقيام، به توصل الأرحام، ويعرف الحلال من الحرام، وهو إمام العمل، والعمل تابعه، يلهمه السعداء، ويحرمه الأشقياء[1] .

ويقول أبو الدرداء ﷺ :(ما من أحد يغدو إلى المسجد لخير يتعلمه أو يعلمه إلا كُتب له أجر مجاهد، لا ينقلب إلا غانمًا)[2] ويقول أيضًا :(لأن أتعلم مسألة أحب إلى من قيام ليلة). وكان ابن مسعود ﷺ يقول: اغد عالمًا أو متعلمًا، ولا تغد فيما بين ذلك، فإنما بين ذلك جاهل أو جُهل[3] . ويقول الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه: العلم خير من المال، والعلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم يزكو مع النفقة، والمال تنقصه النفقة، والعلماء باقون ما بقى الدهر.

وقد أردنا بهذا العرض النظرى لآيات القرآن الكريم، ولأحاديث الرسول الكريم ﷺ، ولكلام الصحابة رضى الله عنهم، أن نبرز أهمية العلم من وجهة النظر الإسلامية، ويبدو لنا أن هذه المضامين تحمل دلالات عظيمة فى تقدير الإسلام للعلم، وكونه عبادة حقيقية، وسبيلاً إلى فهم دينى رشيد، وإلى أداء تعبدى صحيح، اعتقادًا منا أنه ما عبد الله بشىء أفضل من فقه فى الدين، وأن الله تعالى يعبد على جهل عندما لا تكون هناك بصيرة

(١) أخرجه أبو نعيم فى الحلية، وابن عبد البر فى جامع بيان العلم.
(٢) أخرجه ابن عبد البر فى جامعه.
(٣) أخرجه ابن عبد البر فى جامعه.

بالعلم، ولا هداية باليقين، وعندما تضطرب المفاهيم لدى الناس، أو يأخذون أنصاف الحقائق، أو يعتمدون على مدعى العلم من الأدعياء والجهال.

فبهذا العلم كانت معجزة الإسلام، الذى أُيد بمعجزة عقلية علمية برهانية؛ لتبقى مستمرة غير حسية مؤقتة أو مادية عابرة، ولتكون دلالتها مستمرة، مهما تعاقبت الدهور، يعضد هذا قوله ﷺ: « ما من الأنبياء نبى إلا أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذى أوتيته وحيًا أوحاه الله إلىّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة»[1] وهذا الوحى إشارة إلى النور الإلهى والعطاء السماوى الذى به يتفاوت الناس فى قبول الخير، والنفع بالعلم، والانتفاع به، ولذا يقول الرسول الكريم ﷺ: « مثل ما بعثنى الله (به) من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا فكان منها نقية فبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا.. وأصاب منها طائفة أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماءً، ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه فى دين الله، ونفعه ما بعثنى الله له فعلم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى الله، الذى جئت به»[2] .

إن تصنيف الناس إلى أقسام ثلاثة فى هذا الحديث من حيث انتفاعهم بالعلم والهدى ونفعهم به، وتمثيل ذلك بصور ثلاث للأرض فى تصوير نبوى كريم، يعتمد على المحس من الأشياء، يعكس تفاوت الناس فى قبولهم للهدى.. ولعلنا إذا طالعنا سيرة أصحاب النبى الكريم ﷺ فإننا نجد نقاء أرضهم فى نقاء سريرتهم؛ إذ كانت استجابتهم سريعة فى إقبالهم على العلم بعزِم وإيمان، واتخذوا المساجد للصلاة والدرس معًا، وتعلموا فى الحضر والسفر، وفى المسجد والدار وكانت مساجد المسلمين منذ أُنشئت دار تعليم منذ جلس الرسول الكريم يعلم أصحابه، بعد أن ظل المسجد مكانًا للعبادة والدرس أربعة قرون.

والملمح المهم هنا أن المسلمين لم يشعروا قط أن الدنيا تنفصل فى إحساسهم عن الآخرة أو أن الدين ينفصل عن الحياة، وبهذه الروح الشاملة كانوا يأخذون العلم على أنه تحقيق المعرفة بالله؛ التى تزيدهم إيمانًا وتعلقًا به. وذلك بتوظيف العقل فى التفكير

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة ﷺ .
(٢) أخرجه الشيخان عن أبى موسى ﷺ .

والاكتشاف والاستنباط؛ ولذا أفادوا منه فى التوصل إلى قوانين ونظريات وحقائق وتطبيقات؛ مكنتهم من تعمير الأرض، ومعرفة الأسرار الكونية.

ولذا فقد نبغ المسلمون فى كافة ميادين العلم والمعرفة، وكانوا أصحاب النهضة العلمية فى شتى المجالات، ولم تعزلهم عقيدتهم عن البحث فى العلوم الطبيعية؛ بل عدت ذلك عبادة وسياحة روحانية فى آفاق الكون[1] وكان ولعهم بالعلوم الكونية والفنون والآداب وترجمتهم الواسعة فى الثقافات الأخرى واستيعابهم لها مثار دهشة العلماء والباحثين.

وإذا كانت العلوم النافعة هى مستمدة من الوحى أى العلوم الشرعية فإنه يبدو لنا أن العلوم الكونية، وهى التى تهدى إلى التعرف على سنن الله فى كونه، وأسراره فى خلقه، لا تقل فى أهميتها عن دراسة العلوم الشرعية. فالإجادة فى هذا العلوم عون على عمارة الكون وإظهار أسرار الله فى الإعجاز الكونى. فتعلم أصول الزراعة والطب والهندسة، والسعى لتقديم مخترعات وإنجازات علمية إلى غير ذلك هو علم نافع؛ يتحقق به النفع، وترجى منه المصلحة، ويكون طلبه مع صحة النية، وسلامة الطوية. ومع استقامة المقصد، وسمو الهدف أى مع وجود عنصر الإخلاص فى طلبه. أما إذا كان غير ذلك فهو علم غير نافع، قد يضر صاحبه ويكون فتنة ووبالاً عليه، خاصة إذا لم يفد منه صاحبه[2] .

وهذه العلوم الطبيعية والبيولوجية – المشار إليها – من أخصب المجالات التى يمكن للإنسان أن يكتسب فيها تلك المعرفة، التى تساعده على العمل الصالح، الذى

---

(١) حول هذا المعنى يقول الأستاذ الشيخ محمد الغزالى: إن دراسة العلوم الحديثة واجب إسلامى أول، وإن أى عقل نظيف يدرك أن هذه الدراسة امتداد محتوم لحديث القرآن الكريم عن الكون، وإن نتائج الجهود العقلية الذكية دعم للإيمان الصحيح، ودمغ للإلحاد. ودراسة هذه العلوم أولى من التوفر على تفاصيل فقيهة ما كان يعرفها الصحابة رضوان الله عليهم. (علل وأدوية / ١١٤).

(٢) كان رسول الله ﷺ يتعوذ من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع. والعلم غير نافع هو العلم بدون عمل، والعلم الذى يتلقفه الشيطان، والذى يصبح أداةً للكفر ولا يكون نورًا وهداية ومعرفة للحلال والحرام وطريقًا للخير لا للشر، للحق لا للباطل، للطاعة لا للفسق.. يقول الرسول الكريم ﷺ عن أبى الدرداء رضي الله عنه : «ويل لمن لا يعلم مرة، وويل لمن يعلم ولا يعمل سبعين مرة» وقال: « إنما أخاف أن يقال إلى يوم القيامة.. أعلمت أم جهلت؟ فأقول: علمت، فلا تبقى آية من كتاب الله عز وجل آمرة أو زاجرة إلا جاءتنى تسألنى فريضتها، وتسألنى الآمرة، هل ائتمرت؟ والزاجرة، هل ازدجرت؟ فأعوذ بالله من علم لا ينفع، ومن نفس لاتشبع، ومن دعاء لا يُسمع» (جامع بيان العلم لا بن عبد البر).

يتقرب به إلى الله تعالى، فمن خلالها يعرف الإنسان نفسه، ومن ثم يعرف قدره، وحدود دوره المرسوم له فى هذه الحياة الدنيا. ومن خلال دراسته لهذه العلوم يتعرف على بيئته، وما سخر الله تعالى له من دواب، والفلك، والأنعام، والشمس، والقمر، والنجوم.

فالقصد من جميع المعارف والعلوم هو معرفة الله تعالى، والإقرار بوحدانيته، ووجوده سبحانه وعلى حظ قدر المرء من المعرفة تكون خشيته لربه، وطاعته، ومحبته، ورضاؤه بقضائه وقدره؛ ولذا فإن العقل المستقيم والفكر المتدبر والفهم الواعى لا يتحقق إلا بالتفكير فى ظواهر الكون المختلفة، والتأمل فى عجائب صنع الله ويتأتى ذلك من خلال إعمال الحواس، التى زودنا الله تعالى بها فى اكتساب المعرفة، وملاحظة أنعمه سبحانه، ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨].

وقد ذكرنا غير ذات مرة أن الكون كتاب مفتوح، وإنه سياحة فى خلق الله وكونه، وأن مجال العلوم الكونية سبيل للتيقن، فشواهدها ومعطياتها وأدلتها تقوى إيماننا، وتعزز عقيدتنا، وتهدينا إلى سبل الرشاد[1] وهاكم ما قاله بعض العلماء الغرب فى تعضيد العلم للإيمان[2] .

يقول (هرشل) العالم الإنجليزى: كلما اتسع نطاق العلم، ازدادت البراهين القوية الدامغة على وجود خالق أزلى لا حد لقدرته ولا نهاية، فالجيولوجيون، والرياضيون، والفلكيون، والطبيعيون، قد تعاونوا على تشييد صرح العلم، وهو صرح عظمة الله وحده.

ويقول (توماس هسكلى) العالم البريطانى الشهير مخبرًا عن قدرة الخالق: "فى شروق الشمس رأيت أعظم ما يمكن أن يراه إنسان آمن بالله.. وهل هناك أروع من تلك اللحظة التى يظهر فيها هذا القرص الهائل من نفس المكان كل يوم، فيبدد بضوئه الظلام الذى يحتوينا كلما غربت الشمس !!".

---

(١) ارجع إلى كتابنا (الإشارات العلمية فى القرآن الكريم) المنشور فى القاهرة، المكتبة القيمة، ١٩٩٣.

(٢) لمزيد من هذه الأقوال، التى تعضد أهمية العلم للإيمان يمكن الرجوع إلى:
- عبد الله صالح علوان: شبهات وردود حول العقيدة الربانية، القاهرة، دار السلام، ١٩٨٣.
- يحيى هاشم حسن: الإسلام والاتجاهات العلمية المعاصرة، القاهرة، دار المعارف ١٩٨٤.

ثم يضيف: إن الله والعلم لا يفترقان، إنهما دائمًا على موعد، وفى لقاء كل تجربة، فى كل بحث يقوم به العلماء للكشف عن أسرار الكون.

ويقول (هربرت سنبسر) الإنجليزى فى رسالته فى التربية: " إن العالم الذى يرى قطرة الماء فيعلم أنها تتركب من الأوكسجين والأيدروجين بنسب خاصة، بحيث لو اختلفت هذه النسبة لكانت شيئًا آخر غير الماء، يعتقد عظمة الله وحكمته وعلمه الواسع وعندئذ يشعر بجمال الخالق تحت المجهر، ودقيق حكمته أكبر من ذلك الذى لا يعرف بديع صنع الله.

أما ألبرت بروس سابين عالم الميكروبات الشهير فيقول:" إن العلم وسيلة فى فهم أسرار الكون، وكلما استخدم ما يقدم إليه من معرفة، تزداد نظرته إلى الحياة، ويزداد أمام عجائب الخلق خشوعًا، ويصل إلى الإيمان".

ولسنا فى حاجة إلى كثير تعقيب على الشهادات الصادقة السابقة من علماء منصفين، اللهم الإشارة إلى أنه كلما ازددنا علما زاد إدراكنا لقدرة الله وحكمته، وأن العلم فى فهمهم هو توافق الإيمان مع المشاهدة، فالعلم يمنحنا الإحساس العاطفى والروحانى باكتشاف الكون فيما لم يدركه السابقون، وهنا يحدث التجلى، وهو فى الواقع إحساس مفاجئ بفهم الإنسان، وفهم علاقته بالكون، وبخالقه سبحانه.

وتناولنا المتقدم للعلاقة بين الإيمان والعلم، وبين الهداية والعلم وقد أفضى بنا هذا التناول إلى تبيان عدة حقائق مهمة يقينية ونورانية يقودنا إلى محاولة وضع تصور لخصائص العلم فى القرآن الكريم، وسماته المتميزة من خلال إيضاح منهج القرآن الكريم فى تناول قضية «العلم» – وبوسعنا الخلوص إلى عدة نقاط فى ذلك نسوقها فيما يلى:-

١- ينكر القرآن الكريم العلم النظرى البحت، الجاف الفارغ، ويؤكد على العلم التطبيقى ﴿ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ [النحل: ٨٣]. ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ ﴾ [الجمعة: ٥]. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢-٣].

٢- يؤكد القرآن الكريم على المشاهدة والتجريب، ورفض أى دعوى بغير دليل وبرهان حتى الأمور اليقينية ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ﴾ [المؤمنون: ١١٧]. وكذا فى الأمور العقلية ﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: ١١١] ، [النمل: ٦٤]. ونلمح المشاهدة فى الأمور الحسية فى قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف: ١٩] . ﴿ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الأحقاف: ٤].

٣- ينص القرآن الكريم فى منهاجه العلمى والتعليمى إلى وجوب اليقين والتثبت مما يتعلمه المرء المسلم، ويحذر من اتباع الأهواء والمراء والظن ﴿ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ ﴾ [آل عمران: ٦٦]. ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ ﴾ [الإسراء: ٣٦]. ﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾ [النجم: ٢٨]. ويرفض الظن فى مجال العلم ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ [يونس: ٣٦]. ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [يونس: ٦٦]. ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢٣].

٤- جعل الله تعالى (العلم) من أسباب التفوق والجدارة بالريادة والرياسة وهذا ما يفهم من قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٤٧]. ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

٥- ينكر القرآن الكريم تقليد الآخرين والتبعية لهم ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠]. وينعى القرآن الكريم على الذين اتبعوا ساداتهم وكبراءهم بلا علم ﴿ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا

تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٨]. ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ [الأحزاب: ٦٧].

٦- يذكر القرآن الكريم أن العلم نعمة ومنة وعطاء من الله تعالى، بداية بآدم عليه السلام ومرورًا بأنبياء الله، ووصولاً إلى رسول الله ﷺ . ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١]. ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ ﴾ [البقرة: ٣٢]. ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ [يوسف: ١٠١]. وداود عليه السلام ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ﴾ [الأنبياء: ٨٠]. وعيسى عليه السلام ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ [المائدة: ١١٠]. والنبى الكريم ﷺ ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ [النساء: ١١٣].

٧- وسع القرآن الكريم دائرة حواس التلقى والمعرفة، فهناك العقل ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الرعد: ١٩]. وهناك اللمس باليد ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأنعام: ٧]. وهناك القلب ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٣- ١٩٤]. ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ ﴾ [العنكبوت: ٤٩]. ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧]. ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الحديد: ١٦]. ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤]. الذى يعبر عنه بالفؤاد والأفئدة ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ [النجم: ١٤]. ﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [الأنعام: ١١٣]. وهناك السمع والبصر المشار إليهما – بالمفرد فى سورة الإسراء ﴿ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦]. وبالجمع فى سورة النحل ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ وهذه الحواس إذا أحسن الإنسان استخدامها هدى إلى العلم النافع، خاصة أن المرء

مسئول عنها يوم القيامة ﴿ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦]. وقد عطل الله تعالى حواس المشركين وأهل النار من الجن والإنس ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. وقد أضافت الآية الكريمة حاستى الأعين والآذان أما الأعين فجاء التعبير عنها بالبصر والإبصار، وأما الآذان، فوردت مقرونة بالقلوب فى ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ ﴾ [الأنعام: ٢٥]، [الإسراء: ٤٦]. ووردت مقرونة بالأصابع والثياب فى ﴿ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ ﴾ [نوح: ٧]. ووردت مقرونة بالعمى فى قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [فصلت: ٤٤].

٨- يقرب القرآن الكريم الحقائق العلمية بضرب الأمثال، لتكون هداية لأولى العلم والراسخين فيه، وراغبى الهداية، وطالبى الحكمة، فمن فوائد ضرب الأمثال ما يذكره الحق سبحانه ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٢٥]. ﴿ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [إبراهيم: ٤٥]. ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣]. ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر: ٢١].

وقد ضرب الحق تعالى تسعة وستين مثلاً فى القرآن الكريم، وجاء التمثيل فى الخلق والهداية والقرآن والدنيا والجنة والنار والإنفاق والكلمة والشيطان وعيسى عليه السلام والشرك[1] الخ. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد:١٧]. والمثل المضروب فى الآية به عمق وتفرد ومغزى فالحق فى ثباته واستقراره كمثل الماء الصافى الذى

(١) لإحصاء هذه الأمثال استعين بالمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى فى كلمات (مَثَلُ) و(مَثَلُهُ) و(مَثَلُهم).

يستقر فى الأرض، فينتفع منها الناس، ومثل الباطل فى زواله واضمحلاله كمثل الزبد والغثاء الذى يقذف به الماء؛ ليتلاشى ويضمحل، وبذا لا ينتفع منه أحد.

٩- يرشد القرآن الكريم إلى آداب رائعة؛ ليتأدب بها طلاب العلم، كى يرزقوا المعرفة الكاملة، والعقل الثابت، وكى يزدادوا علمًا وهداية وإلهامًا ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ [التغابن:١١]. ويتطلب هذا التواضع ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥]. والوثوق بأن الله واهب العلم لا عقله وذكاؤه وتحصيله[١]؛ ولذا يطلب المزيد دومًا ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤]. ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٧٦]. وموسى عليه السلام يطلب العلم من الخضر عليه السلام بتواضع شديد ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴾ [الكهف: ٦٦-٦٩]. وهكذا يضاف إلى تواضع موسى عليه السلام صنعة أخرى لطالب العلم وهى الصبر عليه، وتحمل متاعبه ومشقة طلبه، ومن آداب التعلم فى الإسلام والإخلاص فى طلب العلم وتصحيح النية، فيتحرى بعلمه وجه الله والدار الآخرة لا مباهاة العلماء، ولا مداهنة الأمراء ولا مماراة السفهاء، ولا التطلع إلى متاع الدنيا فى المقام الأول ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات: ٣٧-٣٩].[٢] وهناك آداب كثيرة ينبغى توافرها لدى المعلم مثل حسن السؤال، وتقدير المعلم، والتواضع له[٣] وعدم الوقوع فى المعصية، والاجتهاد ومداومة الطلب، وآداب أخرى كثيرة[٤].

---

(١) ثم مقولات مهمة فى هذا الصدد منها (لا يزال المرء عالمًا ما طلب العلم فإذا ظن أنه علم فقد جهل) ومنها (من عمل بما علم أورثه الله علم ما لا يعلم)، ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

(٢) أفاضت أحاديث الرسول ﷺ فى بيان خطورة قصد الدنيا فقط فى طلب العلم فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ : «من تعلم علمًا يبتغى به وجه الله عز وجل لا يتعلمه إلا ليصيب به غرضًا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة» يعنى: ريحها. رواه أبو داود بإسناد صحيح.

(٣) يؤكد هذا قول ﷺ: « تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والوقار وتواضعوا لمن تعلمون منه» رواه الطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة رضي الله عنه .

(٤) عنيت كتب السلف ببيان آداب المتعلم ومن ذلك : إحياء علوم الدين، ج١، للإمام الغزالى، مفتاح دار السعادة للإمام ابن قيم الجوزية، وجامع بيان العلم لابن عبد البر، وحياة الصحابة، ج٤، للعلامة محمد بن يوسف الكاندهلوى.

١٠- يركز القرآن الكريم على آثار العلم، وما يحدثه لدى أهله، ومن مخافة الله تعالى، وإقدار عظمته سبحانه؛ فالذين أوتوا العلم لهم خيرية عظيمة عند الله، وقد أشير إلى ذلك فى تسع آيات من الذكر الحكيم ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [النحل: ٢٧]. ولنتأمل تأثرهم بكتاب الله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ﴾ [الإسراء: ١٠٧]. ﴿ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡ ﴾ [الحج:٥٤]. والعلماء الصالحون فى قوم قارون لم يخدعوا ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ [القصص: ٨٠]. وصدورهم تخشع لعظمة ما تكتنزه ﴿ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ ﴾ [العنكبوت: ٤٩]. وأفواههم تنطق بالحق والصدق ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [الروم: ٥٦]. ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ [سبأ: ٦]. ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ﴾ [محمد: ١٦]. وها هم يرفعهم الله تعالى ﴿ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾ [المجادلة: ١١]. فضلاً عن الخشية – المشار إليها – التى يحققها العلم لدى أهله ﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٞ ﴾ [فاطر: ٢٨][1] فالعلماء يخافون قدرة الله تعالى؛ فهم يعلمون أن الله على كل شىء قدير. وعندئذ تتحقق الخشية[2].

(١) استشهدنا بهذه الآية الكريمة فى بداية هذا الفصل، ونضيف هنا أن الآية الكريمة شملت صنوف العلم الطبيعية فى إنزال الماء من السماء، وإخراج الثمرات المختلفة الألوان، واختلاف أحوال الجبال، واختلاف أحوال الناس والدواب والأنعام. وهذه علوم كونية تشهد صاحبها عظمة الله تعالى، وتؤكد آياته سبحانه.

(٢) فى بيان معنى (الخشية) يقول سعيد بن جبير: الخشية هى التى تحول بينك وبين معصية الله تعالى . وقال الربيع بن أنس: من لم يخش الله تعالى فليس بعالم. وقال الحسن البصرى: العالم من خشى الرحمن بالغيب ورغب فيما رغب الله فيه، وزهد فيما سخط الله فيه. وقال الإمام مالك: إن العلم ليس بكثرة الرواية وإنما نور يجعله الله فى القلب.

١١ - يدعو القرآن الكريم إلى تكليف طائفة من المسلمين بالتفقه فى الدين ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢]. وهذه الآية توجب التفقه فى الكتاب والسنة، وأنه على الكفاية دون الأعيان، وفرض الكفاية يتحول إلى فرض عين على المكلفين بهذا الأمر، وعليهم القيام بهذه الواجبات[1] ونجد الدعوة واضحة فى القرآن الكريم إلى الفقه والاعتبار ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٥]. ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٨]. ونعى على هؤلاء الذين لا يفقهون ولا يعتبرون ﴿ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة: ٨٧]. ﴿ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٧]. ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ [الحشر: ١٣].

والخصائص التى رصدناها فى منهج القرآن الكريم فى تناول (العلم) تعكس نظرة تكاملية واسعة فى التعامل مع (العلم) على أنه فريضة وواجب وعبادة ورسالة وتكليف وسبيل إلى الإيمان والخشية والتبصر والتفقه، كما أنه دعوة إلى التقدم والدفع الحضارى، وهذا ما فهمه العرب والمسلمون جيدًا، وكان له تأثيره على حركة حياتهم، وعلى نهجهم الفكرى، وهذا ما نتناوله بالتفصيل فى النقطة التالية.

ثانيًا : العلم وحضارة المسلمين بين الأمس واليوم

بداية نقرر أن التاريخ يبرهن أنه ما من دين حث على التقدم العلمى، كما حث عليه الإسلام وأن التشجيع الذى لقيه والبحث العلمى من الدين الإسلامى أفضى إلى هذا الإنتاج الثقافى – الذى أقل ما يوصف به أنه رائع ومتميز وخلاق – فى أيام الأمويين

(٢) كان صحابة رسول الله ﷺ مثالاً فى التفقه فى أمور الدين، وبرز منهم الفقهاء والعلماء ومن ذلك يقول عبد الله بن مسعود ﷺ: إن عمر بن الخطاب كان أعلمنا بالله، وأقرأنا لكتاب الله، وأفقهنا فى دين الله. ويقول عن نفسه: ما أنزلت سورة إلا وأنا أعلم فيما نزلت: ولو أعلم أن أحدًا أعلم منى بكتاب الله تبلغه الإبل أو المطايا لأتيته. ويقول سعد بن أبى وقاص ﷺ عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما: ما رأيت أحدًا أحضر فهمًا، ولا ألب لبًا، ولا أكثر علمًا، ولا أوسع حلمًا من ابن عباس وكان عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما يقول: ابن عباس أعلمنا بما مضى، وأفقهنا فيما نزل مما لم يأت فيه بشىء.

والعباسيين وأيام العرب فى الأندلس[1] فالإسلام هو الذى دفعهم إلى التقدم، وإدراكهم لقيمة العلم والعلماء حفزهم للنشاط الفكرى، ويقينهم بإعلاء الإسلام للعقل جعل إسهاماتهم، وجهودهم العلمية متميزة.

وقد أقبل المسلمون على العلم ينشدونه فى مظانه، ووجهوا عزائمهم إلى الفكر الأصيل، وكانت رحلاتهم فى طلب العلم مثالاً لحب العلم والتعلم، فقد ارتحل جابر بن عبد الله رضى الله عنهما إلى الشام إلى مصر ليسمع حديثًا من عقبة بن عامر ﷺ، وارتحل صحابى إلى فضالة بن عبد الله ﷺ وهو بمصر – يطلب حديثا، وكان عبد الله بن مسعود ﷺ يقول : لو أعلم أحدًا تبلغنيه الإبل هو أعلم بما نزل على محمد ﷺ لقصدته حتى أزداد علمًا إلى علمى.

وكان سعيهم لطلب العلم هو أخذه عن ثقة، والتماسه من أهله وكان عبد الله بن مسعود ﷺ يؤكد هذ بقوله: (لا يزال الناس بخير ما أخذوا العلم عن أكابرهم، فإذا أخذوه من أصاغرهم وشرارهم هلكوا) ولذا فقد انتهوا إلى تحديد رموز للعلم يؤخذ عنهم، ويؤول إليهم إلى حد التخصص، ولنتأمل خطبة عمر بن الخطاب ﷺ بالجابية: يأيها الناس، من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أُبىّ بن كعب، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتنى فإن الله جعلنى له واليًا وقاسمًا.

وتأسيسًا على فهمهم السابق فقد انتقلوا بفضل قناعتهم بروح العلم والبحث والدراسة والتفقه من أمة أمية إلى أمة متعلمة وعالمة، إلى قادة للفكر والرأى، إلى رواد للمعرفة والحكمة.

ونستطيع القول أن المسلمين الذين جددوا، وأضافوا، وأبدعوا لم يضعوا فى سبيل ذلك قيودًا على عقولهم وفكرهم، فلا يخفى على أحد مدى تعمق المسلمين فى علوم الحياة

(١) لا يحسب القارئ الكريم أن هذا الكلام يقال على سبيل الفخر والإعجاب والتغنى بالماضى وإنما هو رصد لواقع أكده المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام بقوله: لا أخال التاريخ يعرف أمة من الأمم سارت سيرة المسلمين فى طلب العلم، والإخلاص فى تحصيله، وجعله عبادة، واتخاذ المساجد للصلاة والدرس معًا؛ فالمسلم مأمور بالنظر فى السماوات وآثار الأمم وسيرها وأن يطلب العلم حيث كان، ويلتقط الحكمة أنى وجدها. ونضيف إلى ذلك أن مفكرى العرب كانوا يدرسون فكر أرسطو ويكتبون الشروح على فلسفته فى الوقت الذى كان فيه الامبراطور شارلمان ورجال بلاطه لا يعرفون كيف يكتبون أسماءهم!!

فكان منهم المنظرون فى شتى فروع العلم من أطباء وفلكيين ورياضيين وكيميائيين، وكان منهم المكتشفون لحقائق علمية لم يسبقوا إليها. وبفضل عقليتهم العلمية وعدم تحجرهم أطل المسلمون على فكر الآخرين، ووضعوا منهجًا عقليًا علميًا فى التعامل مع ظواهر الحياة[1] ينتقلون فيه من المعلوم إلى المجهول، ومن النظرية إلى التطبيق ويلتزمون فيه بحرية الفكر، التى تطلق العقول والأفهام من أغلال التحجر الفكرى وتستمد من عدم طاعة الأهواء والتقليد الأعمى ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [القصص: ٥٠]. ومن الدعوة إلى التفكير والتأمل والنظر ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق: ٦-٨]. والدعوة ذاتها فى قوله تعالى ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية: ١٧- ٢٠]. وهذه الآيات الكونية استنهضت عقولهم، وأيقظت حواسهم ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٦٧]. ﴿ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴾ [طه:٥٤]. ﴿ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [الحشر: ٢].

وإذا أردنا أن نؤصل لمنهجهم العلمى الذى دفعهم إلى التقدم، فإن منهجهم قرآنى الأصل يجمع بين العقل والحواس، ويتطلب الدليل والبرهان فى عرض الآراء والأفكار كما أن علماء المسلمين استخدموا طريقًا علمياً فى البحث، يعتمد على الملاحظة والتجريب، ويخلص إلى حقائق، وقوانين، ونظريات.

ونرصد ملمحًا آخر يتمثل فى تنوع إنتاجهم الفكرى والعلمى فى شتى فروع العلم، فى الفلك والزراعة والمعادن والكيمياء والطب والهندسة والرياضيات والجغرافيا

(١) لا يجد باحث صعوبة فى تأصيل هذا المنهج العقلى فى الفكر الإسلامى، فالرسول الكريم ﷺ يقول عندما صادف كسوف الشمس وفاة ابنه إبراهيم «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته» وهذا تقرير منه ﷺ على تحرير العقل، وعدم تقييده بأمور خارجة عنه، أو بأمور تحد من إعماله وانطلاقه بخلاف أفكار غير إسلامية قديمة مؤداها أن المرء يخلع عقله مع حذائه عنددخوله دار العبادة!! ولذا تسقط دعاوى المتصوفة بأن المريد يكون بين يدى شيخه كما يكون المتوفى بين يدى مغسله!! ودعواهم فى التسليم بكل شىء منه؛ لأن الخبز الذى يفتش لا يؤكل!!

والفيزياء، هذا فضلاً عن العلوم النظرية والدينية واللغوية والأدبية.. ولم يقتصر الأمر على نبوغهم فى كافة ميادين العلم والمعرفة، ولكن قادوا أكبر حركة فكرية، وتجلى اهتمامهم فى التوسع فى إنشاء المدارس ودور الكتب.

هذا فضلاً عن عنايتهم بالترجمة الواسعة عن اليونانية والسريانية والفارسية وسعيهم إلى تحصيل علوم الأمم الأخرى ومعارفهم، وبعد استيعابهم لتلك المعارف أضافوا إليها، وصححوها، ونقدوها[1] .

أما توجههم إلى التجريب كمنهج فى البحث (المنهج التجريبى) واعتمادهم عليه فى استخلاص نتائجهم فهذا أمر مقرر وثابت؛ فالقاعدة التى كانوا يسيرون عليها – كما قال أحد فلاسفة الغرب ونقله جوستاف لوبون – هى: جَرب، وشاهد، ولاحظ؛ ولذا كان المنهج التجريبى منضبطًا، وله أصول وقواعد – سبقت فرنسيس بيكون فى عصر النهضة – فقد استطاعوا التمييز بين طبيعة الظواهر العقلية الخالصة من جهة، والظواهر المادية الحسية من جهة أخرى، وعلموا أن الأداة المستخدمة فى دراسة هذه الظواهر يجب أن تختلف حسب طبيعة كل منها. كما استطاعوا نقد المنطق الأرسطى العقيم الذى كان يلجأ إلى القياس النظرى المجرد فى تفسير الظواهر الطبيعية. واستبدلوا ذلك بالملاحظات الحسية (التى تقوم على الحواس المجردة) وبالملاحظات التى تتم باستخدام الأجهزة والأدوات المختلفة، وساعدهم ذلك على رصد الأجرام السماوية، وتصنيف النباتات والحيوانات، وتسجيل حالات المرض، ومتابعة نتائج التجارب فى المختبرات[2] .

وخطوات هذا المنهج أضحت متفقًا عليها لدى علمائهم؛ فهو السائد فى الطب وفى الفلك وفى الجغرافيا وفى الكيمياء وفى سائر العلوم الطبيعية، وهذا أضفى على إنتاجهم سمات الأصالة، والدقة، والتميز، والابتكار.

---

(١) يؤكد هذا المعنى (ول ديورانت) فيقول: بلغ الإسلام فى ذلك الوقت أوج حياته الثقافية، وكنت تجد فى ألف مسجد منتشرة من قرطبة إلى سمر قند، علماء لا يحصيهم العد، وكانت جميع مسالك العالم الإسلامى تعج بعلماء الدين والجغرافيا والمؤرخين، وانتشروا فى الأرض بحثًا عن المعرفة والحكمة، ولقد استطاع العرب أن يستوعبوا ما كان عند الأمم المفتوحة من ثقافات بما اتصفوا به من سرعة الخاطر وقوة البديهة.

(٢) كان الحسن بن الهيثم على قناعة بأهمية التجربة العلمية القائمة على استخدام الأجهزة؛ ولذا كان يوصى الباحث بألا يقنع باستخدام الملاحظة فى تصفح الظواهر الحسية الجزئية، وتحديد خصائصها وصفاتها. فالاحتكام إلى التجربة – عند ابن الهيثم وعلماء العرب – هو الأساس، فضلاً عن التجرد من الذاتية والاستقلال بالرأى، وعدم التسليم بأى فكرة سائدة دون تجريب، والرصد الدقيق والعناية بالجزيئات والتفاصيل..

ولم يبق هذا المنهج حبيس الأفق العربى والإسلامى، ولكنه سرعان ما أبرقت أضواؤه على سحب ظلام أوربا؛ فبدت أشعة الحضارة الإسلامية تطل على نوافذها المغلقة التى سرعان ما فتحت لتتلقى النور الجديد.

فقد انتقل المنهج الإسلامى التجريبى إلى العقلية الأوربية، واتجه الفكر الغربى إلى البحوث العلمية التجريبية، وكشف البحث العلمى حقائق فلكية وجغرافية وطبيعية غير تلك المجموعة من الأوهام والأساطير والخرافات، التى تتبناها الكنيسة، وتعتبرها حقائق مقدسة، وهى ليست من النصرانية فى شىء.. ولقد وقفت الكنيسة وقفة عنيفة فى وجه هذا الاتجاه الجديد المنبثق من منهج الثقافة الإسلامية، وقابلت نتائج بحوث الطليعة من العلماء الأوربيين، الذين استقوا من ذلك النبع بجفوة وعداء شديدين، وعندئذ تحقق هذا الفصل بين الدين والعلم حتى مطلع القرن العشرين فى أوربا، ثم بدأ الانفراج بعد ذلك. فالعلم مدين بظهوره لذلك الازدهار العلمى الهائل؛ الذى شهدته الحضارة الإسلامية، والذى انتقل تأثيره على أوربا منذ القرن الثانى عشر الميلادى، وكان لذلك عظيم الأثر فى التقدم العلمى العالمى، وفى النقلة الحضارية للبشرية[1] .

وفى هذا الإطار من المعرفة الشمولية، ومن اقتحام كل ميادين العلم والفنون، ومن البحث العلمى التجريبى، واعتبار ذلك كله عبادة، وفهم المسلمين العميق لدور العلم فى الحياة بكل ذلك درسوا وبحثوا واجتهدوا، فتقدموا، وأنشأوا حضارات رائعة، وكان عصر النهضة فى أوربا صدى للحضارة الإسلامية، وانعكاسًا لعلومهم وإنتاجهم الفكرى والعلمى والتجريبى المتكامل.

والمقدمات السابقة كان ينبغى أن تُفضى إلى نتائج صحيحة؛ بمعنى أن المنجزات العلمية السابقة لدى علماء المسلمين كان يقدر لها أن تنمو وتزدهر، وأننا ننحو نحوهم، ونقتفى آثارهم، ونفيد من إنجازاتهم. فنحن فى حاجة إلى أن ننطلق من فكر أسلافنا

---

(١) يشير إلى ذلك الانجليزى (روجير بيكون) بقوله " إنه باتباع المنهج التجريبى الذى كان له الفضل فى تقدم العرب، فإنه أضحى بالإمكان اختراع آلات جديدة، وتيسر التفوق عليهم، ففى الإمكان إيجاد آلات تمخر عباب البحر دون مجداف يحركها، وصنع عربات تتحرك بدون دواب الجر، وإيجاد آلات طائرة يستطيع المرء أن يجلس فيها ويدير شيئًا تخفق به أجنحة صناعية فى الهواء مثل أجنحة الطير" ونقول إنه ما كان للبشرية أن تخطو خطواتها فى المخترعات والتقنية والمدنية إلا برصيد العرب والمسلمين من الاكتشافات والبحوث والمؤلفات والتجارب.

القدوة والمثل فى حب العلم، والحرص عليه، والتفانى من أجله حتى ننفلت من ركب التخلف، ونسعى إلى معاودة الصدارة، واسترداد اللواء المفقود منذ قرون عديدة[1] .

فالمسلمون اليوم فى حاجة لأن يعيدوا إلى العلم قداسته واحترامه، وأن يؤخذ بالجد والعناية والاحترام، ونحن أحق من غيرنا بذلك، فما تقدمت أوربا إلا بإعلاء قيمة العلم وما تخلفنا إلا بالتخلى عن سيرة أجدادنا فى العلم وتطبيقه. وبالتخلى عن روح البحث العلمى فى الإسلام، وبالفصل بين الدين والعلم، وبين الدين والحياة، وبين العمل والعبادة، وهى كلها مفاهيم جذب لا دفع، رغم أنها فى أصلها مقومات صحيحة للتقدم إذا لم يتحقق فصل بينها على المستويين الفكرى والعلمى.

ومفاهيم الجذب هذه، وعوامل سلبية متعددة أدت إلى التخلف، وتدهور الحضارة الإسلامية الزاهرة وضعفها؛ فضلاً عن التمزق السياسى الذى عاشته الأمة وابتعاد أسلوب الحكم عن مبادئ الإسلام[2]، وكذا الاضمحلال الفكرى الذى تسرب إلى فكر الأمة، بتقييد حرية الفكر والبحث، وعدم إعلاء عمل العقل، وضيق الأفق، وعدم التسامح الفكرى، والحجر على آراء الآخرين، والتعصب للمذهب، والحرص على التقليد والاتباع.

فمنطق القرآن الكريم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١]. نلاحظ تطابقه الشديد على حالة العرب والمسلمين، إذ لم يقدروا قيمة النور الذى يمتلكون، والكنز الذى ورثوه، ولم يحتفظوا بما آتاهم الله من علم وحكمة.

فالمفاتيح العلمية الكثيرة الموجودة فى أيديهم لم يحسنوا استغلالها، ففى مجالات كثيرة بوسعهم التطوير والإضافة والتقدم، ولكنهم آثروا السلامة والدعة والقناعة والتسليم للمستعمر، فالطباعة – مثلاً – طورها العرب عن الصينيين، وأنشأوا لها

(١) إبراز قيمة التراث العلمى عند العرب والمسلمين لا يستلزم العكوف عليه دون غيره؛ بل علينا أن نفيد من علوم الآخرين واجتهاداتهم فى جانبها الحضارى، وأن نركز الضوء على هؤلاء العلماء الذين انتقلوا من الشك إلى اليقين أمثال" جارودى" و" بوكاى" ليكون فكرهم تعبيرًا صادقًا عن انجذابهم إلى رحاب الإسلام، وعن خور الحضارة العلمية الأوربية عندما تفقد جانبها القيمى، والإيمانى، والإنسانى.

(٢) مثل الشورى والعدالة والحرية والمساواة.. وليس بوسعك أن تفصل بين قوة الأمة الإسلامية سياسيًا وبين قوتها العلمية والفكرية؛ ففى ظل أنظمة حكم مستقيمة ومستقرة، يستطيع العلماء العطاء والإنتاج، ويقدر للأمة أن تتقدم وتزدهر وتعطى.

مصانع امتدت إلى الأندلس، وظلت تنتج أجود الأوراق إلى أن غلبتها الصناعة الأوربية الآلية فى مطالع العصر الحديث[1] .

فضلاً عن عوامل ضعف كثيرة أودت إلى التخلف، ورغم البون الشاسع بين مجالات العطاء التى أضاف المسلمون من خلالها وبين واقعهم المتردى هذه الأيام فإنك ترصد محاولات جادة لإيقاظ الأمة، وبث روح النهضة فيها، وإحياء قيم العلم والتعليم، وتطوير البحث العلمى، وإنشاء هيئات ومؤسسات تساعد المبتكرين العرب والمسلمين، وتشجيع الحكومات لذلك، ومحاولة التميز فى بعض المجالات. والمحاولات السابقة المتطلعة للتقدم والتطوير لا تعوزها الإمكانيات المادية، فالأمة الإسلامية تمتلك ثروات طبيعية وبشرية تكفل لها تحقيق نهضة علمية كبيرة فالأمة الإسلامية ليست بالقليلة فهى تعادل ربع سكان العالم عددًا ومكانًا، وتتعدد ثرواتها، وتتكامل تضاريسها، فضلاً عن تنوع مصادر المياه فيها، وكذا وجود مصادر متعددة للطاقة خاصة الشمس؛ التى تطل بضوئها الساطع أغلب أيام العام على بلادها. ناهيك عن مصادر الطاقة الأخرى.

ولن يغيب عنا أن الأمة الإسلامية أخذت تعنى بالبحث العلمى، ويبدو ذلك جليًا فى الجامعات والمعاهد المتخصصة ومراكز البحوث المنتشرة فى دول العالم الإسلامى، ويساعد على ذلك هذه الكثرة العظيمة من آلاف العلماء من الأكاديمين والمتخصصين ومن المهنيين المهرة والأكفاء من مهندسين وأطباء وفنيين[2] .

وهذه المتطلبات المادية والمقومات البشرية الموجودة لا تصنع التقدم وحدها فلا بد من وجود مقومات أخرى مهمة، وهى المقومات المعنوية والروحية؛ النابعة من ضرورة إقدار دور العلم فى صنع التقدم، والقناعة بأن الأخذ به نهجًا وسلوكًا وفكرًا من منظور إسلامى هو سبيل لتحقيق ذلك.

---

(١) لابد أن نشير هنا إلى أن أسلافنا قصروا فى تطوير الطباعة، فرغم عنايتهم بها فإنهم لم يطوروها بصورة تحفظ إنتاجهم الفكرى، وإنجازهم الحضارى.

(٢) رغم هذه التوجهات المشيرة لوجود نهضة علمية فى دول العالم العربى والإسلامى فإنك ترصد ارتفاع نسبة الأمية فى كثير من هذه الدول، وهذا له تأثير عظيم على عملية التنمية والمشاركة والنهضة فيها، ففى مصر يشير تقرير لجنة التعليم أن الأمية فى مصر لا تزال تمثل تسعة وأربعين فى المائة من مجموع السكان!! هؤلاء الذين لا يقرأون ولا يكتبون أنى لهم بإتقان فنون الحضارة، وأنى لهم القيام بواجبات الاستخلاف فى الأرض وأنى لهم فى الإسهام الفعال فى الحركة الثقافية والتعليمية فى بلادهم.

وتأسيسًا على ما تقدم نقول: إن العلم هو صانع الحضارات، وهو القيم على الحياة بما وضع الله فى خصائصه من طاقات لتصوير الظواهر الكونية، وهو الذى وضع المجتمع الإسلامى فى مكان الصدارة من الحياة، يوم أن كان العلم هو القائد لهذا المجتمع؛ فكان العلم هو الذى يوجه حركته، ويدفعه للأمام، فلما ابتعد المجتمع الإسلامى عن هداية القرآن ونور العلم، بما نشأ فوق أرضه من سحائب الجهل والغفلة والفرقة، والانغماس فى الترف المادى، وركود التفكير العلمى، وعندئذ تخلف المجتمع الإسلامى عن قافلة الحياة العلمية، وفى الوقت الذى تفوق علينا غيرنا، وساسوا الحياة بآليات العلم.

ولذا فلن تسرى النهضة واليقظة فى المجتمع الإسلامى إلا إذا عادت إليه الهداية القرآنية فى مجالات العلم قوة دافعة، بالعودة إلى روح كتاب الله الذى أفاض بألوان الهداية التى ترفع شأن العلم، وتعلى قدره فى آياته الشاهدة بتعظيمه وبيان سموه، ورفع قدر أهله.

وهذا أمر – إن تحقق – يعد أملاً مرتقبًا، وليس عسيرًا، فالأمة الإسلامية بوسعها الإسهام فى الإبداع الحضارى بالقدر الذى يتناسب مع مجدها ومكانتها ويستوجب هذا الانتقال من الأخذ والاستيعاب والنقل إلى العطاء والمبادأة والإبداع، ومن الغفلة إلى اليقظة، ومن الرضا بالدونية إلى علو الهمم وعزة المنال، ومن التبعية على الاستقلالية، ومن أخذ الفتات إلى تقديم النتاج، ومن روح الانهزامية إلى روح التحدى والإصرار.

ونستطيع – بعد هذا العرض – أن نوجز الرؤية الشمولية للعلم فى الإسلام والتى نطرحها كأحد أبرز المضامين المهمة للحضارة الإسلامية، وأحد منطلقات البعث الحضارى المنشود والمأمول فى النقاط التالية:-

١- تردد لفظ (**العلم**) ومشتقاته فى القرآن الكريم فى (٧٧١) موضعًا، تأكيدًا لأهميته وفرضيته، وحثًا عليه، وإعلاء قيمة أهله، وإبراز مكانتهم ودورهم ورغم تعدد مجالات تناول القرآن الكريم للعلم فى هذا الرقم الكبير فإننا نجد أن هناك أكثر من ألفى آية، تناولت ما يتصل بالعلم من فقه وعقل وتأمل ونظر وتدبر وتبصر.

٢- يعلى القرآن الكريم من شأن طالبى العلم والعلماء الذين يقدرون عظمة الله تعالى، ومهابته وخشيته، كما أثنى على أولى الألباب، الذين يقومون بواجب العلم حق القيام من تأمل فى الكون، والتماس العبرة، وإحسان التدبر، ورجاء رحمة الله تعالى.

٣- جعل الإسلام البحث العلمى عبادة وقربى لله تعالى، وكان هذا دافعًا للمسلمين للتقدم فقد سعوا لأداء فريضة البحث العلمى، وأخذوا بمنهج النظر العميق فى مختلف مجالات العلوم، وأعملوا النظرة التأملية، والمنهج الصحيح فى التعامل مع الكون.

٤- أوضحت الأحاديث النبوية فضل العلم، وتفضيله على العبادة، وفضل طلبه، والحث على العمل به، وشروط ذلك: كذا الحث على حضور مجالس العلم ومجالسة العلماء كما نطقت أقوال الصحابة والتابعين بالحكمة فى بيان الترغيب فى العلم، وضرورته لأداء عبادة صحيحة، و فهم دينى رشيد.

٥- أجاد المسلمون الأوائل فى العلوم الكونية، ونبغوا فى كافة ميادين المعرفة، ولم يشعروا أن الدين ينفصل عن الحياة، فالعلم – جميعه – طريق للإيمان والهداية، وسبيل لإعمال العقل فى الاكتشاف والاستنباط، كما أنه عون على معرفة الأسرار الكونية، والقيام بواجبات الاستخلاف.

٦- تشمل دائرة العلم فى الإسلام كل العلوم الدينية والطبيعية، والنظرية والتطبيقية. والعلوم الكونية – بعامة – لا تقل أهمية فى دراستها عن العلوم الشرعية، وذلك لاعتبارات مهمة ذكرناها فى مكانها فى التناول.

٧- أكدت شهادات علماء ضرورة العلم للإيمان، وضرورة الأخذ بكل العلوم لتعضيد الإيمان؛ تأكيدًا على أن العلم هو توافق الإيمان مع المشاهدة، وأن العلم يمنحنا الإحساس بعظمة الخالق، وإعجازه فى كونه.

٨- فهمنا للعلم فى القرآن الكريم ينبغى أن يدفعنا إلى التقدم العلمى والتقنى والاقتصادى لنأخذ بأسس الاستخلاف فى الأرض وعماراتها، فالمسلم لا يرى فى البحث العلمى مجرد جرى وراء الكشف عن أسرار الكون، وقوانين الله فيه لتطبيق تلك الكشوف والقوانين فى استثمار ثروات الأرض، وإحكام السيطرة عليها، بل هى واجبات الاستخلاف فى الأرض، ووسيلة للتعرف على واجبات العبودية لله، التى تمثل الضمان الوحيد لعدم استخدام معطيات العلوم فى الإفساد والمعصية.

٩- ما قدمه القرآن الكريم من دعوات للتأمل والمشاهدة واستخدام الحواس والنظر والاعتبار ارتبط فى معظمه بالآيات الكونية، وهذا له مدلوله الذى ينبغى أن ننوه إليه فى ضرورة الأخذ بوسائل العلم وأدواته لتحقيق الاهتداء واليقين.

١٠- ثمّ خصائص للعلم فى القرآن الكريم، أوجزناها فى عشر سمات لمنهج القرآن الكريم فى تناول قضية (العلم) وهى جامعة لتركيز القرآن الكريم على العلم التطبيقى، وتأكيده على المشاهدة والتجريب، وتحذيره من اتباع الأهواء والمراء والظن، وإنكاره من تقليد الآخرين والتبعية لهم، وتوسيعه دائرة الحواس والتلقى والمعرفة، وتقريبه الحقائق العلمية بضرب الأمثال، وإرشاده إلى آداب رائعة فى طلب العلم، وإلى ما يحدثه العلم من خشية لدى أهله، ومخافة لله تعالى، وإقدار عظمته سبحانه، ودعوته إلى تكليف طائفة من المسلمين بالتفقه فى الدين.

١١- اجتهد المسلمون فى طلب العلم، وقاموا برحلات شهيرة لذلك، وكانوا يتحرون أخذه عن ثقة، وأعملوا عقولهم وفكرهم فى طلبه، وتعمقوا فى كل علوم الحياة، وكان منهجهم أصيلاً، يقوم على التجريب كأساس فى الاستنباط، واستخدموا أدوات المنهج التجريبى، وساروا وفق خطواته، وأفاد الغرب من تطبيق هذا المنهج وكان أبرز محفزات السبق والتقدم فى عصر النهضة.

١٢- هناك عوامل متعددة أدت إلى تخلف المسلمين، وتتصل بمفاهيم الجذب، وعوامل سلبية أخرى مثل ضيق النظرة إلى العلم، وعدم القيام بواجباته، وعدم الفهم العميق لدور العلم فى الحياة، والتخلى عن روح البحث العلمى، والفصل بين الدين والعلم، وآليات التقدم تتطلب مقومات مادية وأخرى معنوية، وتحققها ليس بالأمر العسير.

وتناولنا المتقدم لقضية العلم فى الإسلام من منظور شمولية العلم واتساعه وفق المنهج الإسلامى يتطلب أن نعرض للجانب الإعلامى فى الإسلام باعتباره لا ينفصم عن مفهوم العلم ودور الدعاة والعلماء فى الإسلام، فالعلم يظل بعيدًا عن العامة والخاصة ما لم يُبلغ؛ فمفهوم الدعوة متمم لمفهوم العلم فى الإسلام. كما يأتى تناولنا للإعلام فى الإسلام باعتباره أحد المضامين المهمة للحضارة الإسلامية وأحد المجالات التى يبرز من خلالها تكامل الرؤية الإسلامية فى البعث والتقدم وهذا ما نفصله فيما يلى:

ثالثًا: الجانب الإعلامى ومضامينه فى الإسلام

يتباين الناس فى نظرتهم للأشياء، وفى حكمهم عليها، وفى سلوكهم، واتجاهاتهم باختلاف معتقداتهم وقيمهم الدينية.

ومن هنا تبدو أهمية الإعلام – فى الدولة الإسلامية – إذ يشكل الوجدان المسلم، ويوجه الفكر الإسلامى، ويكسب الناس القيم الدينية وينميها لديهم، ويتصدى للفكر المناهض، ويقوم بدوره الصحيح فى توعية الناس بالواجبات الدينية، وفى تعريفهم بدينهم، وفى دعوتهم إلى الدين الحق، وهذا ما سنتناوله بالتحليل فيما يلى:

فقد جاءت دعوة الإسلام عامة لكل الناس - مع اتساع مضمون هذه الكلمة - ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [الأعراف: ١٥٨]. واستوجبت هذه الرسالة المحمدية الجامعة الخاتمة القيام بواجبات التبليغ بصورة فردية، وبصورة جماعية(*) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [المائدة: ٦٧]. والواضح من هذه الآية اقتران التبليغ بالرسالة، فالرسول الكريم ﷺ إذا لم يقم بواجبات التبليغ فلن تتحقق الرسالة؛ لذا يتضح الملازمة بينهما فى مثل ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النور: ٥٤] [العنكبوت: ١٨]. وتبرز ماهية التبليغ وارتباطه بالخشية فى قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

وتحدد آيات قرآنية كثيرة مهمة الأنبياء فى التبليغ، منها قوله تعالى: ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ [الرعد: ٤٠]. وقوله تعالى: ﴿ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النحل: ٣٥]. ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النحل: ٨٢]. ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ [الشورى: ٤٨] ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [التغابن: ١٢].

(*) وردت الإشارة إلى التبليغ والبلاغ للرسالة فى أربع وعشرين آية فى القرآن الكريم مثل قوله تعالى ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ ﴾ [الأعراف: ٦٢]. أما البلوغ الزمانى والمكانى – الأجل والمقام – فقد وردا فى ثمان وأربعين آية فى القرآن الكريم مثل ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ ﴾ [يوسف: ٢٢]. وقوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴾ [الكهف: ٦٠]. وأما البلاغة – أى حسن البيان وقوة التأثير – فقد أشير إليها فى أربع آيات فقط ﴿ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾ [النساء: ٦٣]. وقوله تعالى: ﴿ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾ [القمر: ٥].

وحتمية التبليغ والتى هى أساسية فى الرسالات السماوية يعلنها الأنبياء لأقوامهم ﴿ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ ﴾ [الأحقاف: ٢٣]. وذلك أن يستنفذ كل طاقاتهم، وبعد أن توصد أمامهم عقولهم وقلوبهم ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى ﴾ [الأعراف: ٩٣]. وبعد أن يصلوا لقناعة إيمانية أنهم لم يقصروا فى دعوتهم ﴿ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ ﴾ [الجن: ٢٨][1].

والحتمية السابقة استوجبت جهدًا من أنبياء الله تعالى، وصبرًا ومجاهدة، ولا ضير أن يساعدهم فى هذا رجال آمنوا برسالتهم وبغايتهم، ويسعون لإعلام الناس بالدعوة الجديدة، ويتحملون فى سبيل ذلك المشاق والمتاعب، والرسالة فى كل مرحلة تحتاج إلى تبليغ خاص؛ يتفق مع تطورات الرسالة الجديدة.

وتأسيسًا على ذلك نجد حرص الرسول الكريم ﷺ على التبليغ والإبلاغ، أكان ذلك بالاتصال الشخصى عن طريق إرسال الرسل، والوفود والرسائل، أو بالاتصال الجماعى بالناس عن طريق مجالس العلم والخطب والوعظ.

وكان هذا التبليغ إيصالاً لفكر الرسالة وإعلانًا عنها؛ فقد أرسل الرسول الكريم وفودًا للتعريف بالإسلام، وكان أبرزها وفده إلى النجاشى ملك الحبشة، الذين تحدث باسمهم جعفر بن أبى طالب ﷺ، وكان للإعلام المناهض رأى آخر، فأرسلت قريش عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص، حاملين هدايا للنجاشى، وكان من شأنه أن ردها عليهما، وخرجا من عنده مقبوحين.

كما أرسل الرسول الكريم ﷺ مصعب بن عمير ﷺ إلى المدينة المنورة – قبل الهجرة – والذى عد أول سفراء الإسلام، وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم فى الدين، وكان صهيب مبشرًا بالإسلام، وفاتحًا الآفاق للنور الجديد، ومُعدًا

(١) يقول الإمام القرطبى فى تفسيره (٣/ ٢٤٨٥) " وتبليغ القرآن والسنة مأمور بهما، كما أمر النبى ﷺ بتبليغهما، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [المائدة: ٦٧]. وفى صحيح البخارى عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ: « بلغوا عنى ولو آية وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ومن كذب على متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار» وفى الخبر أيضًا «من بلغته آية من كتاب الله فقد بلغه أمر الله أخذ به أو تركه» وقال مقاتل: من بلغه القرآن من الجن والإنس فهو نذير له. وقال القرطبى: من بلغه القرآن فكأنما قد رأى محمداً ﷺ وسمع منه.

المدينة ليوم الهجرة العظيم، وكان داعية يحمل أمانة التبليغ، وكان من أثر ذلك إسلام أسيد حضير، وسعد بن معاذ، وسعد بن عبادة رضى الله عنهم.

وقد استمر إرسال الوفود بعد الهجرة إلى المدينة، وبعد أن مكن الله تعالى لدينه؛ فقد أرسل الرسول الكريم ﷺ دحية الكلبى ﷺ إلى قيصر ملك الروم، واستعان هو الآخر بأبى سفيان بن حرب وكفار قريش – الذين كانوا تجارًا بالشام – وذلك لسؤالهم عن هذا النبى الجديد، الذى كانت كلمات رسالته ﷺ ناطقة بالدعوة إلى الإسلام، والدخول فى كلمة الله تعالى.

ثم أرسل الرسول الكريم آخر مع رجل إلى كسرى ملك فارس، وأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين؛ فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فلما قرأه كسرى مزقه، وذلك لغضبه بسبب بدء رسول الله ﷺ الرسالة بنفسه، وصاح وغضب قبل أن يعلم ما فيها، ولم تكن كلماته ﷺ سوى تبليغًا ودعاية. وقد أيس شجاع بن وهب من رد فعل كسرى؛ فلما رأى ذلك قعد على راحلته ثم سار، فالتمسوه فلم يجدوه، فلما قدم شجاع على النبى ﷺ أخبره بما حدث. فقال ﷺ " مزّق كسرى ملكه".

وكان كتابه ﷺ إلى المقوقس صاحب الأسكندرية مع الصحابى حاطب بن أبى بلتعة ﷺ تأكيدًا لحرص الرسول الكريم ﷺ على التبليغ والإبلاغ، وكان من شأن المقوقس أن قبل الكتاب، وأكرم حاطبًا، وأحسن نزله، وسرحه إلى النبى ﷺ وأهدى له مع حاطب كسوة وبغلة بسرجها وجاريتين: إحداهما (مارية القبطية) أم إبراهيم، وأما الأخرى فوهبها رسول الله ﷺ لمحمد بن قيس العبدى.

كما تحقق إسلام كثير من القبائل من خلال هذه الرسائل المحمدية، التى تحمل الدعوة للتوحيد، ومنها كتابه ﷺ إلى أهل نجران باليمن، وإسلام شرحبيل بن وداعة، وكذا كتابه ﷺ إلى الأسقف أبى الحارث، وكتابه إلى بكر بن وائل، وكتابه ﷺ إلى بنى جذامة.

وقد أردنا الإشارة إلى هذه الرسائل باعتبارها من صور الاتصال الفردى الشخصى؛ التى آتت ثمارًا طيبة يانعة، وتحقق بها التبليغ الصحيح، فتح الله بها بعض القلوب لنور الله.

أما الاتصال الجماعى للتبليغ فيبرز فى خطبه الكريمة ﷺ، وقد تنوعت فى الحج والغزوات، وجميع الحالات، وكانت أول خطبة له ﷺ فى التذكير بالآخرة، ثم خطبه ﷺ الجامعة فى يوم الجمعة فى تقوى الله تعالى، وخطبه ﷺ فى الغزوات وبيان فضل الشهادة فى سبيل الله، ومن ذلك خطبته ﷺ فى غزوة تبوك، وفى فتح مكة، وخطبه ﷺ فى شهر رمضان، فى استقباله، وفى مغفرة الذنوب فى أول ليلة من ليالى رمضان، وفى حبس الشياطين، واستجابة الدعاء فى رمضان، وخطبته ﷺ فى تأكيد صلاة الجمعة، وفى حجة الوداع، وخطبته ﷺ فى الدجال، وفى الكسوف، وفى مسيلمة الكذاب، وفى يأجوج ومأجوج، وفى ذم الغيبة، وفى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وفى التحذير من الكبائر، وفى الشكر، وفى خير العيش، وفى الرغبة عن الدنيا، وفى الحشر، وفى القدر، وخطبته ﷺ فى الولاة والعمال، وفى الأنصار.

وكما نرى تنوع موضوعات خطبه ﷺ واتساع مضامينها، وشموليتها؛ فإننا نرى خطبًا متعددة للصحابة رضى الله عنهم، ومنها: خطبة أبى بكر الصديق ﷺ لما ولى الخلافة، وخطبه له فى التقوى والعمل للآخرة، وخطبة جامعة له فى مكارم الأخلاق. ومنها: خطبة عمر بن الخطاب ﷺ حين فرغ من دفن أبى بكر الصديق ﷺ، وخطبته حين ولى الخلافة، وخطبته فى طريقة معرفته الناس، وفى أمور أخرى. وخطبته فى النهى عن المغالاة فى المهور، وفى النهى عن الكلام فى القدر، وفى نصح الرعية وبيان حقها عليه. وكذا خطبة عثمان بن عفان ﷺ بعد تولى الخلافة، وخطبه عن الموت، والتقوى، وطلب الآخرة. ونلحظ تنوع خُطب الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى فضل العشيرة للرجل، وفى حضور رمضان، وفى القبر وأهواله، وفى الآخرة، وخطبة له فى تشييع جنازة، وفى الحض على العمل للآخرة، وفى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وثم صور أخرى فى الاتصال الجماعى للتبليغ نلحظها فى مواعظه ﷺ فى السفر والحضر، ومنها موعظته ﷺ فى التفكر، وفى صحف موسى عليه السلام، وكذا مواعظ الصحابة رضى الله عنهم مثل مواعظ عمر بن الخطاب ﷺ فى الحكم، وفى تصنيف الرجال والنساء، وفى العلم والحكمة؛ وكذا مواعظ أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى بيان حقيقة الخير، ومواعظ أخرى عظيمة للصحابة فى متفرقات عظيمة.

ويبدو لنا أن حرص الرسول الكريم ﷺ على التبليغ بالصور السابقة هو استجابة للأوامر القرآنية المتعددة، وسعى لإعلام الناس بحقيقة الإسلام ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [إبراهيم: ٥٢]؛ ولذا كان التبليغ فى بداية الدعوة مقصورًا على بيان حقيقة الدين الإسلامى، وظل كذلك لمن هم خارج مكة أو المدينة؛ حيث جاءت دعوته ﷺ لهرقل وكسرى والمقوقس منصبة على التعريف بالإسلام والتوحيد والهداية ونلمح هنا اختلاف مضمون رسالة التبليغ، فقد اختلف محتوى الخطب والمواعظ عن الرسائل الخارجية والوفود، وذلك لاختلاف طبيعة المتلقين، وهاكم ما يؤكد ذلك:

- جاء فى رسالته ﷺ إلى هرقل عظيم الروم:

« بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى. أما بعد: فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤] » .

والأريسيين: أى الأتباع والخدم.

- ونتأمل خطبته ﷺ فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر: عن عائشة رضى الله عنها قالت: دخل علىَّ النبى ﷺ فعرفت فى وجهه أن قد حضره شىء، فتوضأ وما كلم أحدًا، فلصقت بالحجرة أستمع ما يقول، فقعد على المنبر فحمد الله، وأثنى عليه وقال:« يأيها الناس إن الله يقول لكم: مروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر قبل أن تدعونى فلا أجيب لكم، وتسألونى فلا أعطيكم، وتستنصرونى فلا أنصركم» فما زاد عليهم حتى نزل[1] .

والواضح أن الاختلاف فى مضمون الرسالة عن محتوى الخطبة يرجع إلى أن المتلقى للرسالة كان خالى الذهن بموضوعها؛ ولذا انصبت على التوحيد والإسلام، أما

(١) أخرجه ابن ماجة وابن حبان وأحمد والبزار عن السيدة عائشة رضى الله عنها.

الخطبة التى استشهدنا بها فقد اتجهت إلى أمور توجيهية وأمرية وتحذيرية؛ وذلك لأن الجمهور المتلقى هم الصحابة الكرام، وقد تجاوزوا مرحلة الإيمان، وتطلب نصحهم الرقى بمضمون الرسالة، والدقة فى موضوعها، أو الخصوصية التوجيهية[1].

وإنك لتلحظ أمرًا آخر فى تبليغه ﷺ للملوك والرؤساء، فقد خاطب كلاً منهم بمضمون يختلف عن الآخر؛ ولذا يبدو تأكيده الواضح ﷺ على المسيحية وعيسى بن مريم عليهما السلام فى كتبه إلى النجاشى والمقوقس وغيرهما: مثل «وأشهد أن عيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطاهرة الطيبة الحصينة؛ فحملت بعيسى فخلقه من روحه ونفخته كما خلق آدم بيده ونفخه» وهذا الجزء المقتبس من رسالته ﷺ إلى النجاشى هو إدراك منه ﷺ لحال المخاطب، والتحدث إليه بمشاركة دينية روحية عقائدية، يعلن فيها الرسول الكريم الإيمان بنبيهم عليه السلام، وكان من شأن هذا التأثير الطيب على النجاشى أن كان رده كريما «... فقد بلغنى كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فورب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت. وقد عرفنا ما بعثت به إلينا؛ وقربنا ابن عمك وأصحابه، فأشهد أنك رسول الله صادقًا ومصدقًا، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين».

ولن يفوتنا أن نقرر أن هدف الرسالة الإعلامية فى رسائله ﷺ للملوك كان محددًا بإعلامهم بالإسلام وتبليغهم به، ودعوتهم إليه. أما الرسالة الإعلامية الداخلية فى الخطب والمواعظ فكان متسعًا، باتساع أهدافها، وتطور حاجيات المجتمع الوليد؛ الذى لن يكتمل نموه إلا ببذور جديدة، وبتوجيهات متصلة، وبإيضاحات متتالية، وبأفكار قوية، تصل بصاحب الرسالة ﷺ.

والتحديد السابق لماهية التبليغ باعتباره أحد وسائل الإعلام فى الإسلام وأحد مهام الرسل الوثيقة الصلة بطبيعة الرسالة؛ التى لن يتحقق وجودها بصورة واقعية إلا بالتبليغ والإبلاغ؛ هذا التحديد يعد جزئيًا فى المفهوم الكلى للإعلام فى الإسلام؛ ولذا تبرز دائرة أخرى أكثر اتساعًا للإعلام الإسلامى وهى " الدعوة" باعتبارها ركيزة أساسية فى النظرية الإعلامية فى الإسلام ونستطيع أن نخلص مما تقدم إلى عدة أمور

(١) ولذا يبدو تطوير مضمون خطبه ﷺ وارتقاء فحواها فى موضوعات تشريعية وأخلاقية وإرشادية وفى تصحيح المفاهيم، وتفقيه الناس فى دين الله تعالى.

مهمة تتصل بالعلاقة بين الإعلام فى الإسلام، وبين التبليغ بصورة متعددة، وهذا ما سنعرض له فيما يلى:

المتأمل فى آيات القرآن الكريم يجد الدعوة الصريحة للإعلام بالدعوة، والجهر بها(*) ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]. ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر:٩٤]. ثم إنذار العرب جميعًا ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَـٰفِلُونَ ﴾ [يس: ٦]. ثم بيان إرساله ﷺ إلى كل العالمين ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٨]. ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١].

ويؤكد القرآن الكريم أن رسالات الأنبياء استوجبت الجهر بالدعوة ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [نوح: ١]. ويُلح أنبياء الله على بيان ذلك ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ [هود:٢]. ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الحج: ٤٩]. ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص: ٤٦]. ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَـٰفِلُونَ ﴾ [يس: ٦].

ونلمح تشابهًا قرآنيًا بين التبليغ والإنذار، فمفهوم الإنذار ينضوى تحت التبليغ، وكلاهما تحقيق للدعوة والإعلام عنها؛ ولذا نجد الربط بينهما فى قوله تعالى ﴿ هَـٰذَا بَلَـٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ ﴾ [إبراهيم: ٥٢]. وكما أن القرآن الكريم قصر مهمة الرسل فى التبليغ – كما تقدم – فقد قصرها هنا فى إنذار أقوامهم ﴿ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٨]. ﴿ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [ص: ٧٠]. ﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الملك: ٢٦].

(*) وردت الإشارة فى القرآن الكريم إلى الإنذار بالدعوة بصورتيه الاسمية والفعلية فى (١٢٤) موضعًا تأكيدًا لأهمية التبليغ بالإنذار، واعتبار ذلك جزءًا من إعلام الناس بالدعوة، فالصيغ الفعلية وردت فى (٤٥) موضعًا، بينما وردت الصيغ الاسمية فى (٧٩) موضعًا. ونجد الثراء والتنوع فى التناول فى تلك الصيغ من الأفعال المضارعة والأمرية والماضية ومن المفرد والجمع، ومن اسم الفاعل واسم المفعول وصيغة المبالغة.

وإذا أضفنا للجهر بالإنذار بالدعوة عنصرًا آخر هو التبشير لتكامل مفهوم التبليغ لاكتمل مفهوم التبليغ – بالإنذار والتبشير – حيث ربط القرآن الكريم بينهما فى خمسة عشر موضعًا. فماهية التبليغ فى القرآن الكريم تقوم عليهما ﴿ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الكهف: ٢]. ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ [مريم: ٩٧]. ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [فصلت: ٤]. وماهية التبليغ عن رسل الله، تعالى تجمع بينهما ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢١٣]. ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [النساء: ١٦٥]. ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٤٨]. وماهية التبليغ عن رسول الله ﷺ تتحقق بهما معًا ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [البقرة: ١١٩]. ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٦]. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤٥]. ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [فاطر: ٢٤].

وهكذا فإن القرآن الكريم يوسع دائرة التبليغ، باعتباره إعلامًا للمتلقين بدين الله تعالى على اختلاف أحوالهم، كما يوسع مضمون الرسالة المبلغة بالتبشير والإنذار، والترغيب والترهيب، وهذا متحقق فى التبليغ بالقرآن الكريم، وفى رسالة أنبياء الله، وفى رسالة الرسول الكريم ﷺ .

وحديثنا عن (التبليغ) هو جزء من مفهوم أكبر هو " الدعوة" التى أشرنا إلى أنها ركيزة أساسية فى النظرية الإعلامية فى الإسلام. فماذا عن الدعوة فى المضمون الإعلامى للدين الإسلامى؟.

الحق أن القرآن الكريم يؤكد دومًا أن الدعوة هى سبيل أنبياء الله تعالى لإبلاغ رسالتهم لأقوامهم وإخبارهم وإعلامهم بها ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ [يوسف: ١٠٨]. ورد أقوامهم واضح ﴿ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [هود: ٦٢]. ﴿ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ [الشورى: ١٣]. أما المؤمنون فإن استجابتهم لدعوة الرسل فورية ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن

يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا ﴾ [النور: ٥١]. وأنبياء الله يبذلون جهدًا مضاعفًا فى دعوة أقوامهم ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ۝٥ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُواْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ﴾ [نوح: ٥-٩] (*) .

ونجد القرآن الكريم حريصًا على بيان منهج الدعوة الإسلامية الصحيحة؛ روحًا وأسلوبًا ومضمونًا وهذا ما يتضح من تطويفنا بالآيات التالية؛ ففى روحها نقرأ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ ﴾ [الأنفال: ٢٤]. ﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [فصلت: ٣٣]. وفى أسلوبها نقرأ ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥]. ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ [القصص: ٨٧]. ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴾ [الشورى: ١٥].

وفى مضمونها نقرأ ﴿ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩٣]. ﴿ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [يونس: ٢٥]. ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [الحج: ٦٧]. ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴾ [الشورى: ١٥]. ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [الشورى: ٥٢]. ﴿ وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ ﴾ [الحديد: ٨].

كما نجد أدب النبوة زاخرًا ببيان ذلك؛ يقول الرسول الكريم ﷺ فى بيان أجر الدعوة إلى الله تعالى: « من دل على خير فله أجر مثل فاعله»(٢) ولا نجد فضلاً أعظم من

(*) الملاحظ فى الآية الكريمة أنها جمعت بين أمور متعددة فى قضية الدعوة وقوة الداعية، فهناك ضرورة مواصلة الدعوة، ومقابلة ذلك يتباعد الإيمان من قوم نوح عليه السلام، وتعبيرهم عن ذلك بوسائل الرفض المختلفة، وذلك بعدم استماعهم، وإعراضهم، وانصرافهم، واستكبارهم. ورغم ذلك فنوح عليه السلام حريص على معاودة الدعوة وإظهارها، تارة بالجهر بها، وأخرى بالصياح، ثم بالإسرار، وإتيانهم فى منازلهم، أى لم يبق مجهودًا إلا فعله.

(١) رواه مسلم عن عقبة بن عمرو الأنصارى رضي الله عنه .

هذا فى اتساع دائرة الأجر والثواب؛ الذى يعضده أيضًا قوله ﷺ: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور مَنْ اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا»[1] ويتعاظم فضل الدعوة فى قوله ﷺ: « فوالله لأن يهدى بك الله رجلاً واحدًا خير لك من حمر النعم»[2] وقد ذكر الرسول الكريم حُمر النعم؛ لأنها أنفس أموال العرب، ويضربون بها المثل فى نفاسة الشىء، وأنه ليس هناك أعظم منه، وهذا تقريب للأفهام من خلال صورة دنيوية مُحسة.

ونجد تبيانًا آخر منه ﷺ فى بيان أجر الدعوة فيقول: « من سن فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا، من سن فى الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها، ووزر من عمل من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيئًا»[3] وقوله ﷺ : « من سن فى الإسلام خيرًا فاستن به كان له أجره ومثل أجور من تبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا، ومن سن شرًا فاستن به كان عليه وزره ومثل أوزار من تبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيئًا»[4] .

ونجد حرصه ﷺ على تبليغ الرسالة والدعوة إليها بشتى الوسائل، مهما قويت الموانع، وكثرت المعوقات، وعاند المعارضون[5] فقد عرض الرسول الكريم ﷺ الدعوة على أبى طالب عند وفاته « يا عماه قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة، فقال: لولا أن تعيرنى قريش يقولون: ما حمله عليه إلا فزع الموت لأقررت بها عينك، ولا أقولها إلا

---

(١) رواه مسلم عن أبى هريرة ﷺ .

(٢) جزء من حديث متفق عليه عن سهل بن سعد الساعدى ﷺ .

(٣)رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائى والترمذى وابن ماجة عن جرير بن عبد الله البجلى ﷺ .

(٤) رواه الإمام أحمد والحاكم فى المستدرك عن حذيفة بن اليمان ﷺ .

(٥) يتأكد لنا حرصه ﷺ على الدعوة؛ مما أخرجه الطبرانى عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى: ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٥]. ونحو هذا من القرآن قال (إن رسول الله ﷺ كان يحرص أن يؤمن جميع الناس، ويبايعوه على الهدى؛ فأخبره الله عز وجل أنه لا يؤمن إلا من سبق له من الله السعادة فى الذكر الأول، ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاء فى الذكر، ثم قال الله عز وجل لنبيِّه ﷺ : ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾ [الشعراء: ٣-٤].

لأقر بها عينك، فأنزل عز وجل ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص: ٥٦][1] .

وتبدو صلابته ﷺ وقوة إرادته، ورسوخه فى الحق، من عرض عتبة بن ربيعة عدة إغراءات على رسول الكريم ﷺ فيقول له: يا بن أخى إن كنت تطلب بهذا الحديث مالاً فذلك لك على قومك أن يجمع لك حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تطلب شرفًا حتى لا يكون أحد من قومك أشرف منك ولا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد ملكًا ملكناك" ولم يكن منه ﷺ إلا أن قرأ عليه حم السجدة، وعتبة يستمع إليه، ثم يعود إلى نادى قومه – وهو الذى جاء ليزحزح الرسول الكريم عن دينه ورسالته ودعوته – فلما رأوه مقبلاً قالوا: لقد رجع إليكم بوجه غير ما قام من عندكم، فجلس إليهم فقال: يا معشر قريش، قد كلمته بالذى أمرتمونى به، حتى إذا فرغت كلمنى بكلام لا والله ما سمعت أذناى مثله قط وما دريت ما أقوله له !![2] .

وكان هذا الصمود القوى منه ﷺ تأكيدًا لقناعته بدعوته؛ وكان هذا دفعًا لإسلام الكثيرين، فهو يجاهد فى دعوة قومه، وكان هذا مثار تعجب ودهشة من بعض الصحابة فانظر إلى صبره ﷺ فى دعوة الحكم بن كيسان إلى الإسلام، الذى جعل رسول الله يدعوه إلى الإسلام فأطال، فقال عمر ﷺ: علام تكلم هذا يا رسول الله؟! والله لا يسلم هذا آخر الأبد، دعنى أضرب عنقه، فجعل النبى ﷺ لا يُقبل على عمر؛ حتى أسلم الحكم. فقال عمر ﷺ: فأسلم والله فحسن إسلامه، وجاهد فى الله حتى قتل شهيدًا ببئر معونة ورسول الله راض عنه ودخل الجنان[3] .

وهو ﷺ يدعو فى السلم والحرب، فها هو رسول الله ﷺ يعطى الراية لرجل يحبه الله ورسوله، هو الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى غزوة خيبر – فيقول الإمام على: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال رسول الله ﷺ: « انفُذ على رِسْلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى؛ فوالله لئن يهدى الله بك رجلاً واحدًا خير لك من حمر النعم»[4] .

---

(١) رواه مسلم وأحمد عن أبى هريرة ﷺ .

(٢) أخرجه أبو نعيم فى دلائل النبوة عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما.

(٣) أخرجه ابن سعد عن المقداد بن عمرو ﷺ .

(٤) رواه البخارى ومسلم عن سهل بن سعد رضى الله عنهما.

ولم يكن لرسالة الإسلام أن تصل إلى قلوب الناس وعقولهم إلا بإيمان صاحبها بقوة حاضرها وازدهار مستقبلها، وأنها ستبلغ شأنًا عظيمًا فيقول المصطفى ﷺ: « والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون»[1] ويؤكد هذا المعنى قوله ﷺ: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مَدَر ولا وبَرَ إلا أدخله هذا الدين بعزِّ عزيز، أو بذل ذليل، عزًا يعز الله به الإسلام وأهله، وذلاً يذل الله به الكفر»[2] .

وهذا الإيمان منه ﷺ برسالته كان أساسًا فى تبليغ دعوته، وإعلام الناس بها، أفرادًا وجماعات؛ ولنا أن نصاحب رسول الله ﷺ فى رحلاته الإيمانية الداخلية والخارجية، فيعرض الرسول الكريم الدعوة على صديقه فى الجاهلية أبى بكر الصديق ﷺ فقال له: «إنى رسول الله أدعوك إلى الله» فلما فرغ من كلامه أسلم أبو بكر[3] وكان عمر بن الخطاب ﷺ – هذا الذى دعا رسول الله ﷺ أن ينصر الله به الإسلام – يقدم على الرسول الكريم ﷺ ويقول له: اعرض على الذى تدعو إليه، فقال: « تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله»، فأسلم عمر مكانه. ودعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان إلى الإسلام، فأسلم، ودعا على بن أبى طالب كرم الله وجهه إلى الإسلام، فأسلم، فقال له: « أدعو إلى الله وحده لا شريك له، وإلى عبادته وأن تكفر باللات والعزى» والدعوة ذاتها إلى الصحابى خالد بن سعيد بن العاص ﷺ: « أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وتخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يضر ولا يبصر، ولا ينفع ولا يدرى مَنْ عبده ممن لا يعبده»!! قال خالد: إنى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله، فسر رسول الله ﷺ إسلامه.

كما جاهد رسول الله ﷺ فى دعوته المشركين، فدعا أبا جهل بن هشام إلى الإسلام، فقال له : يا أبا الحكم، هلم إلى الله وإلى رسوله، أدعوك إلى الله» ويدعو الرسول الكريم الجماعة من رؤساء قريش إلى الإسلام، إذ يجتمعون فى مكان واحد، وكان منهم عتبة

---

(١) رواه البخارى عن خباب بن الأرت ﷺ .

(٢) رواه أحمد والطبرانى عن تميم الدارى ﷺ .

(٣) فى صدد سرعة استجابة أبى بكر الصديق فى الإيمان يقول الرسول الكريم ﷺ: « ما عرضت الإسلام على أحد، إلا كانت له كبوة عدا أبى بكر، فإنه لم يتعلثم!!».

وشيبة ابنى ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، والوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف، وعبد الله ابن أبى أمية، والعاص بن وائل، ويبعثون إلى محمد ﷺ ليكلموه – وكان عليهم حريصًا يحب رشدهم، ويعز عليه فسادهم – وتحدثوا إليه عن إدخاله على قومه ما أدخل، وشتمه آبائهم وآلهتهم، وتفريق جماعتهم، ويعرضون عليه المال والشرف والملك، فيقول فيقول لهم ﷺ: «ما بى ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثنى رسولاً، وأنزل على كتابًا، وأمرنى أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا، فبلغتكم رسالات ربى، ونصحت لكم، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم من الدنيا والآخرة، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم» وينصرف رسول الله ﷺ حزينًا أسفًا لما فاته مما كان طمع فيه من قومه حين دعوه، ولما رأى من مباعدتهم إياه.

ولا تكاد تأتى مناسبة إلا ويستغلها رسول الله ﷺ فى دعوه قومه، فعندما نزل قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]. يعلو النبى الكريم جبل المروة مناديًا آل عبد مناف، وآل قصى – كل قريش – ويقول ﷺ: « إن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين وأنتم الأقربون من قريش، وإنى لا أملك لكم من الله حظًا، ولا من الآخرة نصيبًا إلا أن تقولوا (لا إله إلا الله) فأشهد بها لكم عند ربكم، وتدين لكم العرب، وتذل لكم بها العجم».

ويعرض الرسول الكريم ﷺ الدعوة على قبائل العرب، فيدعو بنى عامر، وبنى محارب، وبنى عبس، وبنى كندة، وبنى كعب، وبنى كلب، وبنى حنيفة، وبنى بكر، وبنى شيبان، ودعوته الأوس والخزرج، ودعوته ﷺ القبائل فى الأسواق، فى السفر، وفى القتال.

كما اتخذت دعوته ﷺ أبعادًا أوسع، بإيفاد الصحابة رضى الله عنهم لدعوة الناس إلى الله تعالى ورسوله، وكذا إرساله السرايا للدعوة إلى الله تعالى، وإرساله الرسائل على المشركين بعد هجرته ﷺ، ثم مخاطبته ﷺ للملوك والرؤساء على نحو ما أوضحنا آنفًا.

وفضلاً عما تقدم من جهاده ﷺ فى نشر الدعوة، فقد قيض الله تعالى لدينه من نصروه من أبنائه، ومن أعدائه.. ونستشهد لذلك بجعفر بن أبى طالب فى دعوته

للنجاشى ملك الحبشة عند الهجرة إليها – وجعفر من أبناء الإسلام – وكذا بحديث أبى سفيان مع هرقل ملك الروم – وهو يومئذ من أعداء الإسلام – وهذا ما نعرضه فيما يلى:

أما دعوة جعفر بن أبى طالب ﷺ فكانت بعد لقاء النجاشى بوفد قريش – الإعلام المضاد- ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم، فلما جاءوا، وقد دعا النجاشى أساقفته، وسأل الصحابة عن دينهم الذى فارقوا قومهم لأجله، فكان الذى كلمه جعفر بن أبى طالب ﷺ فقال له: أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية؛ نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيئ الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف، فكنا على ذلك؛ حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.. فلم نشرك به شيئًا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليرودنا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا فى جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك[1] .

وأنت ترى قوة حجة الداعية، وسلامة منطقه من كلام جعفر بن أبى طالب، الذى قارن العرب فى الجاهلية، وفى الإسلام، وأورد صفات النبى الكريم ﷺ، وأركان الدين الجديد، والقيم التى يدعو إليها، وما فعله الكفار لردهم عن دينهم، ثم سبب اختيارهم لملك الحبشة دون سواه.. وكان تعاطف النجاشى معهم هو الجزاء الأوفى، بأن أكرم ضيافتهم، ولم يسلمهم لوفد قريش، وحقق النصرة لهم، ودخل دينهم كما أوردناه.

وأما عون الله تعالى للإسلام، بنصرته على يد أعدائه، من خلال دعوة الحق، ومن خلال تيسير الله تعالى وجود من ينطقون بالحق من غير أهل الإسلام، فمن ذلك حديث أبى سفيان مع هرقل عظيم الروم، مما أخرجه البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن

(١) ابن هشام : السيرة النبوية، ج١، بيروت، مؤسسة علوم القرآن، د.ت، ص ٣٣٦.

أبا سفيان أخبره أن هرقل أرسل إليه فى ركب من قريش – وكانوا تجارًا بالشام – فى المدة التى كان رسول الله ﷺ مهادنًا فيها أبا سفيان وكفار قريش – بعد صلح الحديبية – فأتوه، وهم بإيلياء. فدعاهم فى مجلسه، وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بالترجمان، فقال: أيكم أقرب نسبًا بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى! قال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم نسبًا، قال: ادنوه منى، وقربوا أصحابه فاجعلوه عند ظهره. ثم قال لترجمانه: قل لهم: إنى سائل هذا عن هذا الرجل فإن كذبنى فكذبوه، فو الله لولا أن يؤثروا عنى كذبًا لكذبت عنه.

ثم كان أول ما سألنى عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب. قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا . قال: فهل كان من آبائه من مَلك؟ قلت: لا . قال: فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم. قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون. قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا. قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا . قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه فى مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها. قال: ولم يمكنى كلمة أدخل فيها شيئًا غير هذه الكلمة. قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه. قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة، والصدق، والعفاف، والصلة.

فقال الترجمان: قل له سألتك عن نسبه؛ فزعمت أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها. وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول قبله فذكرت أن لا، فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله. وسألتك: هل كان من آبائه من ملك، فذكرت أن لا، فلو كان من آبائه من ملك، قلت: رجل يطلب ملك أبيه. وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر – يدع – الكذب على الناس، ويكذب على الله. وسألتك: أأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل، وسألتك: أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم. وسألتك: أيرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؛ فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب. وسألتك: هل يغدر، فذكرت أن لا، وكذلك الرسل

لا تغدر. وسألتك: بم يأمركم، فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله، ولا تشركوا بـه شـيئًا، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقًا فسيملك موضع قدمى هاتين. وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم، فلو أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت – تكلفت – لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه.

إن المنهج الذكى الذى استخدمه هرقل فى الإحاطة بالإسلام من لسان أحد أعدائه لحقيق به أن يصل إلى النتيجة الصادقة الـسابقة. كـما أن صـدق أبـى سـفيان فى إجاباتـه ساعده على تكوين صورة متكاملة صحيحة عن الإسـلام. وهـذا الحـديث درس لكـل داعية فى استخدام منطق صائب فى المحاورة، والخلوص إلى النتائج من خلال المقـدمات ولا أظنك تختلف معى فى أن الله تعالى أنطق الحق أولاً على لسان أبى سـفيان إذ فرضـت عليه عروبته ونخوته ومكانته أن يكون صادقًا، ثم أنطقه كذلك على لسان هرقل، الـذى تكشفت أمامه حقائق، لا تقبل الشك أو التأويل، فجميع إجابـات أبـى سـفيان جـاءت بالنفى، وإذ به هو الآخر يذعن لهذا الحق البين، وينسى ملكه وحاشـيته ويـود أن يكـون من خدم رسول الله ﷺ، وقبل هذا يتنبأ للإسلام بمستقبل آت، وهذا ما صـدقته الأيـام، ووصل الإسلام أرض الشام ومصر وفارس وغيرها.

وكان وصوله لهذه البلاد، وغلبة كلمة الحق، على يد رجال أدركوا أهمية الدعوة إلى الله؛ فعمر بن الخطاب يوصى سعد بن أبى وقـاص رضى الله عـنهما أن يـدعو النـاس إلى الإسلام ثلاثة أيام قبل أن يقاتلهم، والشىء نفسه فعله سلمان الفارسى ﷺ فى دعوة بنـى قومه أيامًا ثلاثة قبل قتالهم، وكان داعية أهل فارس. وكذا فعل النعمان بن مقرن والمغيرة ابن شعبة رضى الله عنهما مع رستم يوم القادسية بالدعوة إلى الله تعالى قبل القتال ويدعوه ربعى بن عامر بمنطق إيمانى عظيم – عندما سأله رستم عن سـبب مجيـئهم – فقـال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سـعة الآخـرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليـه، فمـن قبـل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبدًا حتى نُفضى – ننتهـى – إلى موعـود الله، قالوا: وما موعود الله ! قال: الجنة لمن مات على قتال مَنْ أبى، والظفر لمن بقى.

واستمرت وفود الصحابة لدعوة رستم إلى دين الله؛ فذهب حذيفة بن محـصن ﷺ فى اليوم الثانى والثالث، وبعث طائفة من أصحاب سعد بن أبى وقاص إليه قبل الواقعة

ولم يكن بد من القتال بعد أن أغمضوا عيونهم، وصموا آذانهم، وأغلقوا عقولهم، وتحقق نصر الله تعالى لعباده المسلمين الصادقين يوم القادسية.

ونستطيع أن نرصد سمات منهجه ﷺ فى الدعوة إلى الله تعالى فى النقاط التالية:

أولاً: الدعوة إلى مكارم الأخلاق: يقول الحق تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وهذا الخطاب إليه ﷺ اشتمل على عدة أخلاقيات حميدة، وآداب عظيمة فى التعامل مع الناس، وفى دعوتهم إلى الله تعالى، ويعضد هذا قول الحق تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١]. فالتأسى برسول الله ﷺ فى أقواله، وأفعاله وأحواله، والاقتداء بشمائله تحقيق لإسلامية الأمة، التى لا يكتمل إيمان أحدها حتى يكون هواه تبعًا لما جاء به الرسول الكريم ﷺ.

وأهم مكارم الأخلاق التى يدعو إليها رسول الله ﷺ هى التى أوجزها فى قوله: «مكارم الأخلاق عشرة، تكون فى الرجل ولا تكون فى ابنه، وتكون فى الابن ولا تكون فى الأب، تكون فى العبد ولا تكون فى سيده، يقسمها الله لمن أراد به السعادة: صدق الحديث، وصدق البأس، وإعطاء السائل، والمكافأة بالصنائع، وحفظ الأمانة، وصلة الرحم، والتذمم للجار، والتذمم للصاحب، وإقراء الضيف، ورأسهن الحياء»[1].

ومنها قوله ﷺ لأبى هريرة رضي الله عنه: « أطعم الطعام، وأفش السلام، وصِل الأرحام، وصَل بالليل والناس نيام تدخل الجنة بسلام»[2].

وقوله ﷺ لأبى هريرة رضي الله عنه – أيضًا –: «اتق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمنًا، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلمًا، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب».

---

(١) رواه الحكيم والبيهقى عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها.

(٢) رواه أحمد وابن أبى الدنيا وابن حبان والحاكم عن أبى هريرة رضي الله عنه.

ووصاياه الذهبية ﷺ للصحابة رضى الله عنهم تمثل إطارًا جامعًا لمكارم الأخلاق فيقول أبو ذر الغفارى ﷺ: أوصانى خليلى ﷺ بخصال من الخير: أوصانى بأن لا أنظر إلى مَنْ هو فوقى، وأن أنظر إلى من هو دونى وأوصانى: بحب المساكين، والدنو منهم، وأوصانى: أن أصل رحمى وإن أدبرت. وأوصانى أن لا أخاف فى الله لومة لائم. وأوصانى أن أقول الحق وإن كان مرًا. وأوصانى أن أكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنها كنز من كنوز الجنة»[1] .

وتتنوع مكارم الأخلاق فى الإسلام لاتساع دائرة الأخلاق الحميدة، وهى التى تحدثنا عنها بشىء من التفصيل فى الفصل الثانى.. ويعنينا هنا الإشارة إلى أنه من المضامين الأساسية لدعوة الحق، ولإعلام الناس بالقيم التى يدعو إليها هذا الدين العظيم؛ ولذا كان الرسول الكريم ﷺ يقدم توجيهاته الأخلاقية إلى أصحابه، ودائمًا تكون هذه التوجيهات متصلة بالسلوكيات والنصائح والأخلاقيات الإسلامية، وتكون كذلك جامعة لأسس مكارم الأخلاق. فانظر إلى هذه الوصية الجامعة لأسس مكارم الأخلاق. فى قوله ﷺ لمعاذ بن جبل ﷺ « يا معاذ: أوصيك باتقاء الله وصدق الحديث، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وترك الخيانة، وحفظ الجار، ورحمة اليتيم، ولين الجانب، وبذل السلام، وسنن العمل، وقصر الأمل ولزوم الإيمان، والتفقه فى القرآن، وحب الآخرة، والجزع من الحساب، وخفض الجناح. وأنهاك: أن تسب حكيمًا، وتكذب صادقًا، أو تطيع آثمًا، أو تعصى إمامًا عادلاً، أو تفسد أرضًا؛ وأوصيك: باتقاء الله عند كل حجر وشجر، ومدر، وأن تحدث لكل ذنب توبة: السر بالسر، والعلانية بالعلانية»[2] .

ثانيًا: الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة: يقول الحق سبحانه ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥]. واستوجبت هذه الحكمة الصبر على قومه والأخذ بأيديهم إلى رحاب الله، وضرب الأمثال لهم، لتقريب الفهم، والداعية الحق هو الذى ينتهج حكمة وعقلانية وموضوعية فى دعوة الناس.

---

(١) رواه الترمذى عن أبى هريرة ﷺ .

(٢) رواه البيقهى فى الزهد، وأبو نعيم فى الحلية عن معاذ بن جبل ﷺ .

وتعضد هذه الحكمة– التى تكون بالأمر بالأخلاق الحميدة والنهى عن الصفات الرذيلة – بشئ مهم الأخذ بالموعظة الحسنة فى الدعوة؛ وذلك بعدم التشديد على الناس، وعدم التعسير عليهم، والرفق معهم، وفتح باب الرجاء أمامهم. وهذا ما تؤكده سلوكياته ﷺ فى التيسير على من يدعوهم، ومن يطلبون الهداية، وكان لهذا النمط الأخاذ من المعاملة بالرفق الأثر العظيم فى دخول كثير من الكفار وأهل الكتاب فى دين الله تعالى. بل تجده ﷺ يتسع صدره لأخطاء الناس، ويحاورهم بأسلوب رقيق؛ ليدركوا أخطاءهم بأنفسهم دون الموعظة المباشرة، ومن ذلك أن غلامًا شابًا أتى النبى ﷺ فقال: يا نبى الله أتأذن لى فى الزنا؟ فصاح الناس، فقال ﷺ: قربوه، ادن، فدنا حتى جلس بين يديه. فقال النبى ﷺ: أتحبه لأمك؟ فقال: لا، جعلنى الله فداك، قال: كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم.. أتحبه لأختك؟ وزاد ابن عوف حتى ذكر العمة والخالة وهو يقول فى كل واحدة: لا، جعلنى الله فداك، وهو ﷺ يقول: كذلك الناس لا يحبونه. فوضع رسول الله ﷺ يده على صدره وقال: اللهم طهر قلبه، واغفر ذنبه، وحصن فرجه؛ فلم يكن شىء أبغض إليه منه؛ يعنى الزنا[1] .

وهكذا نجد حكمته الفريدة ﷺ فى محاورة هذا الرجل الذى استولت الرذيلة على نفسه، فإذا برسول الله ﷺ يُبدل تعلقه بالذنب، وطلبه الترخيص له بالزنا إلى دعاء صادق بطهارة القلب، ومغفرة الذنب، وتحصين الفرج. مما جعل الرجل يبغض الزنا ويستقبحه، ويحدث تحول إيجابى فى حياته من إقدام على المعصية إلى بُغضٍ لها، ونفورٍ منها؛ بعد أن استخلص الرسول الكريم وساوس الشر وجذور المعصية من قلبه وعقله وبدنه.

ولك أن تتأمل معى فى قصة هذا الشاب فلو أن الرسول الكريم أغلظ عليه فى القول، وشدد عليه فى النكير، وأمر بإخراجه لأنه شيطان مارق؛ لأدى هذا إلى قنوط الشاب من رحمة الله، وقد ينغمس فى شهواته، آخذًا اتجاهًا سلبيًا ما دام داؤه قائمًا، وعِلته موجودة، وآخذة فى الاستفحال والكِبر.

ونجد تصديقًا نبويًا آخر لما تقدم، فى رفقه ﷺ بالجاهل، وتعليمه فى أناة وصبر من غير تعنيف وتسفيه، ومن غير زجر وشدة؛ ولنستشهد على ذلك بهذا الحديث الصحيح

(١) أخرجه الإمام أحمد بإسناد جيد عن أبى أمامة ﷺ .

الذى رواه أنس بن مالك ﷺ : بينما نحن فى المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابى فقام يبول فى المسجد؛ فقال أصحاب رسول ﷺ : مه .. مه.. فقال الرسول الكريم: لا تزرموه (لا تقطعوا عليه بوله) دعوه، فتركوه حتى بال. ثم إن رسول الله ﷺ دعاه فقال له: إن هذه المساجد لا تصلح لشىءٍ من هذا البول ولا القذر، إنما هى لذكر الله عز وجل، والصلاة، وقراءة القرآن. ثم أمر الرسول ﷺ رجلاً من القوم فجاء بدلو من ماء فشنه عليه (أى صبه على موضع النجاسة)[1] .

وهكذا تركه الرسول الكريم حتى ينتهى الموقف، ثم يعلمه فى رفق وأبوة، ولربما قطع الرجل بوله مخافة الناس فأضر نفسه، ولعله كان سينجس مواضع أخرى من المسجد إذا أخذ فى التحرك للخارج وهو يبول، ولعله كان سينجس بدنه كذلك، وتنتشر النجاسة.

وهذه المواقف تمثل درسًا تعليميًا قويًا فى توجيه الناس، وتبصير الدعاة بكيفية الدعوة بالحسنى، والتعامل مع أمراضهم وعللهم وأخطائهم بالحكمة السديدة.

ومن الموعظة الحسنة لديه ﷺ التزام منهج محدد فى التيسير على الناس، وكلماته ﷺ فى ذلك أضحت صورة ناطقة بيسر الإسلام، ففى حديث أنس ﷺ يقول الرسول الكريم: « يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا»[2] والأحاديث التى تنطق بعدم الغلو كثيرة ومنها قوله ﷺ فى بيان الفطرة الصحيحة « لكل عمل شِرة، ولكل عمل فترة، فمن كانت فترته إلى سنتى فقد اهتدى»[3] ولذا كان النبى الكريم ﷺ ينكر على هؤلاء الذين يعتقدون أن الإفراط فى العبادة أمر محبب إلى الله تعالى، فأوضح سننه لهؤلاء النفر الذين قدموا إلى منزله ﷺ فسألوا السيدة عائشة عن عبادته ﷺ فكأنهم تقالوها، فقال أحدهم: أما أنا فأقوم الليل كله، وقال الثانى: أما أنا فأصوم الدهر كله، وقال الثالث: أما أنا فلا أتزوج النساء فإذا به ﷺ يخرج إليهم قائلاً: « أنتم الذين تقولون كذا وكذا، أما أنا فأقوم وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، وهذه سنتى فمن رغب عن سنتى فليس منى»[4].

---

(١) الحديث أوردته كتب الصحاح عن أنس بن مالك ﷺ . ولفظ البخارى – رحمه الله – بال أعرابى فى المسجد؛ فقام الناس ليقعوا فيه، فقال النبى ﷺ : دعوه وأريقوا على بوله سَجْلاً (دلوا) من ماء، فإنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين).

(٢) أخرجه البخارى عن أنس بن مالك ﷺ .

(٣) أخرجه البخارى . والشرة أى الجدة وبلوغ الحد الأقصى، والفترة هى الفتور والتراخى.

(٤) أخرجه البخارى عن السيدة عائشة رضى الله عنها.

وكان منهجه ﷺ فى أمر أصحابه ألا يكلفوا أنفسهم فوق طاقتها؛ لأن الله تعالى لا يمل حتى تملوا؛ وأحب العمل إلى الله تعالى أدومه وإن قل، فعن أنس بن مالك ﷺ « دخل النبى ﷺ المسجد فإذا بحبل ممدود بين الساريتين فقال: ما هذا الحبل؟ قالوا: هذا حبل لزينب فإذا فترت تعلقت، فقال النبى ﷺ: لا .. حلوه، ليصل أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليقعد»[1] ونلتمس توجيهًا كريمًا منه ﷺ فى الحديث الذى رواه ابن عباس رضى الله عنهما يقول: سمعت عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال: قال لى النبى ﷺ: « ألم أُخبر أنك تقوم الليل وتصوم النهار؟ قلت: إنى أفعل ذلك. قال: إنك إذا فعلت ذلك هجمت عينك، ونهقت نفسك، وإن لنفسك عليك حقًا، ولأهلك حقًا، فصم وأفطر وقم ونم»[2] .

وإنك لتجد مواقف أخرى تؤكد حرصه ﷺ على الموعظة الحسنة فى عدم إثقاله على الصحابة بالموعظة مخافة الملل والسأم، وهذا إدراك شامل لطبيعة النفس البشرية، فيقول ابن مسعود ﷺ : كان النبى ﷺ يتخولنا بالموعظة فى الأيام كراهة السآمة علينا[3] .

ثالثًا: الموازنة فى أمور الدعوة: كما أن الدعوة إلى الله تعالى تكون بالحكمة والموعظة الحسنة فإنها كذلك تراعى ظروف المتلقين وأحوالهم، مما يستلزم فقهًا للدعوة فى البدء بالأهم، وتقديم الأساسيات على الفرعيات، بل وترك الأمر بالمعروف مخافة وقوع الناس فى الفساد .. ونجد تأكيد ذلك فى الأحاديث النبوية الكريمة، وفيما فعله رسول الله ﷺ فقد ترك الرسول الكريم قواعد الكعبة كما هى، ولم يشأ إعادتها إلى قواعد الخليل إبراهيم عليه السلام مخافة وقوع فتنة بين الناس، خاصة أن الإيمان لم يستقر فى قلوبهم بعد[4] فعن ابن عمر رضى الله عنهما عن السيدة عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال لها: «ترى أن قومك لما بنوا الكعبة اقتصروا على قواعد إبراهيم، قلت: يا رسول الله ألا تردها على قواعد إبراهيم؟ قال : لولا حدثان قومك بالكفر لفعلت»[5] ويقول لها أيضًا ﷺ: « لولا حداثة قومك بالكفر لنقضت

---

(١) أخرجه البخارى عن أنس بن مالك ﷺ .

(٢) أخرجه البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما وهجمت أى ضعفت، ونهقت: أى كلت.

(٣) أخرجه البخارى عن ابن مسعود ﷺ .

(٤) لمزيد من الشرح يمكن الرجوع إلى تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ ﴾ [البقرة: ١٢٧]. وذلك فى تفسير الإمام ابن كثير، وتفسير الإمام القرطبى، وتفسير الفخر الرازى.

(٥) أخرجه البخارى عن السيدة عائشة رضى الله عنها.

البيت، ثم لبنيته على أساس إبراهيم عليه السلام فإن قريشاً استقصرت بناءه، وجعلت له خلفًا»[1].

وهكذا ترك رسول الله ﷺ، إنكار المنكر خشية الوقوع فى منكر أشد، وهو قيام فتنة بين الناس، وظنهم أنه ﷺ يريد بهذا أن يفضلهم، ويفخر عليهم ذلكم أنهم – قريش – كانوا يعظمون الكعبة، فهى مصدر قوتهم وسلطانهم .. ولم يكن لهم قبول أى تغيير فيها، ولن يقفوا سالبين إزاء ذلك، هذا ما أدركه الرسول الكريم ﷺ بفكره الثاقب، وسلوكه القويم.

وهذه الموازنة فى أمور الدعوة والتى رأينا تأسيسًا لها فى فكره وسلوكه ﷺ يجب أن تكون موجودة لدى داعية يتعامل مع الناس، فيبدأ بالأمور الأهم فى شئون الدعوة، ولا يدخل بهم فى تفريعات فقهية وفكرية، ولا يلج بهم فى أمور خلافية ومذهبية إلا بعد أن يستوفى الأصول الرئيسة من الإيمان والفرائض والقواعد، فإذا ما أُشرب الناس ذلك وفهموه وطبقوه واهتدوا به، أخذهم بعد ذلك إلى الفروع وليس إلى الخلافات التى تعكر صفو الحياة الدينية، وتجعل النفوس غير مطمئنة[2].

ويمكن القول: إن هناك سمات أخرى لمنهجه ﷺ فى الدعوة إلى الله تعالى، نكتفى بالإشارة إليها فقط هنا، وذلك مثل: التزام القدوة الحسنة، معاودة الدعوة لمن يعارضها، الجمع بين الترغيب والترهيب، الالتزام بالصدق فى الدعوة، الإخلاص والتجرد لله تعالى، مواجهة الأفكار المنحرفة، الحرص على تبليغ الدعوة، استخدام القصص والأمثلة فى توضيح الأمور للمتلقين. . الخ. وهذه السمات فى مجموعها أفضت إلى وجود قاعدة إعلامية نبوية، كان من نتائج نجاحها أن أظهر الله الحق ومحق الباطل ﴿ **وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ** ﴾ [الإسراء: ٨١]. ودخل الناس فى دين الله أفواجًا فرحين بنور الله تعالى الذى فتح رسول الله ﷺ أبوابه لهم، بدعوته المتميزة إلى الله تعالى والتى أثنى عليها الحق

---

(١) أخرجه البخارى عن السيدة عائشة رضى الله عنها.

(٢) ولعل تدرج القرآن الكريم فى تحريم الخمر – على ثلاث مرات – ما يؤكد المنهج الإسلامى السابق الذى نفذه ﷺ فى دعوة الناس ثلاثة عشر عامًا إلى توحيد الله تعالى فإذا ما أدرك الناس ذلك، وتحول إلى سلوك أخذت آيات الأحكام تنزل عليهم فى مدينة النور – المدينة المنورة – ويعلمهم رسول الله ذلك، هذا من فقه الدعوة الإسلامية.

جل وعز ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام:٩٠].

وبوسعنا أن نقرر أن المنهج الإسلامى فى الدعوة والإعلام – كما أوضحه القرآن الكريم وأحاديث النبى الكريم ﷺ وأقوال الصحابة وأفعالهم – ارتكز على أمانة الكلمة وصدقها فى الإسلام كأساس أصيل فى الدعوة إلى الله، وهذا ما تفصله النقطة التالية..

أهمية الكلمة فى الإعلام الإسلامى:

يؤكد القرآن الكريم دومًا على خطورة الكلمة فيقول الحق سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٦]. ويقول جل وعز: ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ [الكهف: ٥].

كما يدعو إلى القول الكريم الحسن المسئول فيقول سبحانه: ﴿ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة: ٨٣]. ويقول سبحانه: ﴿ فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٨]. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠].

ويحذر من القول دون العمل بكلام مُرسل يجافيه السلوك العام والخاص للفرد دون إقدار لمسئولية الكلمة فيقول الحق سبحانه: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [النور: ١٥]. ويقول عزت قدرته: ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٦]. ويقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢-٣].

وفى مواضع كثيرة من القرآن الكريم يتكرر النداء ذاته بإقدار الكلمة وضرورة توجيهها للخير والصلاح ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ [الإسراء: ٥٣]. ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾

[الحجـــــــرات: ١٢]. ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨]. ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢].

وفى الأدب النبوى نجد توجيهات النبى الكريم ﷺ بضرورة الحرص على القول الحسن، وعدم إطلاق الكلمات إلا فى الخير، فيقول ﷺ: « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت»[١] ويقول أيضًا: « إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يلقى لها بالاً يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يُلقى لها بالاً يهوى بها فى جهنم»[٢]، وعن سفيان بن عبد الله ﷺ قال : قلت يا رسول الله : حدثنى بأمر أعتصم به قال: «قل ربى الله ثم استقم» قلت: يا رسول الله ما أخوف ما تخاف علىّ؟ فأخذ بلسان نفسه، ثم قال: «هذا»[٣]، وفى حديث معاذ «وهل يكب الناسَ فى النار على وجوههم إلا حصائدُ ألسنتهم»[٤]، وجمع الرسول الكريم ﷺ النجاة فى ثلاث، قالها ﷺ لعقبة بن عامر ﷺ : « أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك»[٥] .

وأمانة الكلمة تقتضى عدم كتمها، والتصريح بها، وإعلانها، فيقول ﷺ: «أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»[٦]، ويقول أيضًا: « من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار»[٧] والمعنى ذاته فى قوله ﷺ : « نضر الله امرأ سمع منى شيئًا فبلَّغه كما سمعه فرب مبلغ أوعى من سامع»[٨] .

وفى المجتمع المسلم تتأكد خطورة الكلمة، وما يتبعها من مسئولية وتبعات؛ فالكلمة الصادقة تفتح أبوابًا للخير والفلاح لدى المتلقى، وتكون بمثابة النور الذى يفتح العيون على رسالة الحق، ومن هنا يتأكد لنا ضرورة الالتزام بالتوجيهات القرآنية فى

(١) حديث متفق عليه رواه أبو هريرة ﷺ .
(٢) أخرجه الإمام البخارى عن أبى هريرة ﷺ .
(٣) رواه الترمذى وقال: حديث حسن صحيح.
(٤) رواه الترمذى وقال: حديث حسن صحيح.
(٥) رواه الترمذى وقال: حديث حسن.
(٦) رواه أبو داود والترمذى عن أبى سعيد الخدرى ﷺ .
(٧) رواه أبو داود والترمذى عن أبى هريرة ﷺ .
(٨) رواه الترمذى عن ابن مسعود ﷺ .

القول الحسن، والقول السديد، والقول الميسور، والالتزام بصدق العمل مع صدق القول.

فالكلمة هى مناط التفاهم، وطريق الوصول إلى الحقيقة، ومدار الحوار، ومدار النقاش، وفى الإعلام الإسلامى لا تكون الكلمات للخداع أو الضغط أو الإكراه، وإنما هى وسيلة للإقناع، وسبيل للمواجهة، وميدان للتدبير والتفكير، وهى دعوة إلى الوصول إلى الحقيقة، والانتفاع بالعلم النافع، دون تأثير عارض مفتعل، ويزول بزوال السبب، وإنما يبقى كشجرة طيبة وارفة؛ يمتد فرعها إلى السماء، فأصولها ثابتة قوية.

وفى المقابل فإن الكلمة السيئة الخبيثة فيها تضليل وإضلال وتزييف للحقيقة، ولا تستند إلى الحق، وفيها ترويج للإشاعات، وإتهام للآخرين، يقول الرسول الكريم ﷺ: «أيما رجل أشاع على رجل مسلم بكلمةٍ، وهو منها بريءٌ يشينه فى الدنيا كان حقًا على الله أن يذيبه فى النار، حتى يأتى بإنفاذ ما قال»[1] ولذا وجب التصدى لمثل هذه الأباطيل المكذوبة، وتصحيحها، يقول الرسول الكريم ﷺ : «من ذب عن عرض أخيه بالغيبة كان حقًا على الله أن يقيه النار»[2].

فالرسالة الإعلامية فى المجتمع المسلم تقوم على نشر كلمة الدين الصحيحة، عن وعى وبصيرة، والدعوة إلى إعلاء كلمة الحق والصدق والعدل، يقول سبحانه ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ [يوسف: ١٠٨]. وذلك بالتواصى بالخير والتناهى عن الشر ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾ [العصر: ٣]. وكذا المعارضة بأسلوب كريم، فيه الأدب والإحسان، ودفع السيئة بالحسنة، يقول تعالى: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩٦]. فدفع السيئة بالسيئة ينقص من قيمة الحق، وقيمة الداعية، وإنقاص قيمة القدوة لديه، وبذا يصبح داعية سوء؛ لا يقدر أهمية الكلمة، وأهمية الرسالة؛ ولما للرسالة والكلمة من أهمية وفاعلية فإننا نلتمس إقدار الصحابة رضوان الله عليهم لذلك، ويقينهم أن الخير فى أن

---

(١) رواه البيقهى فى " شعب الإيمان" من حديث أبى ذر الغفارى ﷺ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد وابن المبارك فى (الزهد) والطبرانى فى (الكبير) وأبو نعيم فى الحلية عن أسماء بنت زيد رضى الله عنها.

نقول الكلمة أمينة صادقة، ولا نمنع الآخرين من قولها، فانظر إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ يدور حوار بينه وبين أحد الناس، ويتمسك الآخر برأيه، ويقول لأمير المؤمنين: اتق الله يا عمر! ويكررها مرات كثيرة، ويزجره أحد الأصحاب قائلاً : صه، فقد أكثرت على أمير المؤمنين. ولكن أمير المؤمنين يقول له :« دعه؛ فلا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نسمعها».

وهو ﷺ يوجه أصحابه إلى عدم كتم النصح له، وتوجيهه بالرأى الصواب الذى قد يختلف مع رأى عمر ﷺ، فتأمل قوله الصريح المجرد عن الهوى: « لا تقولوا الرأى الذى تظنونه يوافق هواى، وقولوا الرأى الذى تحسبونه يوافق الحق».

ونجد تأكيدًا على ذلك فى حواره مع حذيفة ﷺ عندما يجد عمر بن الخطاب مهمومًا، فيسأله: ماذا يا أمير المؤمنين؟!.

فيجيب عمر ﷺ: إنى أخاف أن أخطئ فلا يردنى أحد منكم تعظيمًا لى. يقول حذيفة ﷺ: فقلت له: « والله لو رأيناك خرجت عن الحق، لرددناك إليه» فيفرح عمر، ويستبشر، ويقول: « الحمد الله الذى جعل لى أصحابًا يقوموننى إذا اعوججت».

وهكذا نرصد فهمًا راقيًا للكلمة الناصحة، وللمعارضة المستنيرة، التى حدد عمر ابن الخطاب ﷺ مواصفات لها؛ فلبس بالضرورة أن الآراء المعارضة توافق رأيه هو، فالرأى الحر الصحيح يبتغى به وجه الله، وليس إرضاء الحاكم؛ فموافقة الحق هى الأساس، ولصاحب الحق مقالة؛ ولذا يسر عمر ﷺ عندما يجد من يقومونه، ويردونه إلى الصواب؛ عندما يعوج.. وكان يحزن لأن الناس قد يمتنعون عن رده ونصحه، تعظيمًا وإجلالاً له؛ فإذا بهم يدركون دورهم، ويعلمون أمانة التوجيه، وفرضية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

ولعل الطريف هنا أن أمير المؤمنين عمر ﷺ هو الذى يستحث الناس على معارضته، ويجعل الخير فى أن يقولوها صريحة مدوية، وعليه هو أن يسمعها ويستجيب لها، بل ويجعل من فضل الله عليه أن قيض له فى هذه الأمة من يقوم اعوجاجه، ويرده إلى الحق.

وأخيرًا فإن الكلمة فى الإعلام الإسلامى ينبغى أن توافق المتلقى، وترعى ظروفه وأحواله فدعوة الخطاء (كثير الخطأ) الذى كثرت عليه الذنوب والمعاصى ينبغى أن

تصبع مفتاحًا لتوبته وفلاحه، ودعوة المجاهر بالمعصية المبارز بالخطايا بقوارع الحجج وزواجر الكلم، ودعوة الرقيق الذى زلت قدمه تكون توجيهًا حانيًا وأخذًا رفيقًا رقيقًا.. وفى كل حالة تتنوع الموعظة حسب طبيعة من توجه إليه، وقد ألمح القرآن العظيم إلى كيفية التعامل مع صنف آخر – لم نذكره فيما تقدم – هم المنافقون ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾ [النساء: ٦٣]...

وإذا كانت الكلمة – كما أوضحنا – لها أهميتها فى الإعلام الإسلامى والدعوة إلى الله فإن هناك حواسًا أخرى تستقبل الكلمة وتستقبل غيرها، لها دور عظيم فى تلقى الإعلام الإسلامى، وهذا ما نوضحه فيما يلى..

استقبال المسلم للمادة الإعلامية يعتمد فى درجة كبيرة على حواسه التى يتلقى بها، وعلى توظيفه الجيد لتلك الحواس؛ فالسمع والبصر نافذتان يتعامل بهما قلب المرء مع العالم الخارجى ومؤثراته، وعليهما مسئولية عظيمة فى ذلك ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦]. ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧].

ودورهما الرقابى التنظيمى لتلك المؤثرات يتعاظم هذه الأيام لكثرة ما يحيط بنا من مرئيات ومسموعات، مما يراه المسلم ويصل إلى أذنيه من صنوف اللهو والفحش واللغو، فإذا ما مرت هذه الأشياء عبر الأذن أو العين فإنها تأخذ طريقها إلى القلب مباشرة، وعندئذ قد يفسد صاحبه، وقد ختم الله على قلبه لكثرة مداخلة المعاصى إليه: وخاصة عندما لا ينكر قلبه هذه الموبقات، بل يتآلف معها، ويستأنس بها، حتى يرنو على قلبه ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤]. ويصاب القلب بالمرض والقسوة والزيغ والحسرة، وكل هذه المعانى عبر عنها القرآن الكريم باعتبارها مظاهر لفساد القلب، وفى المقابل عبر عن صلاحه بالطهارة والتقوى والاطمئنان والتأليف والتثبيت والخشوع ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [الحديد: ١٦](*).

(*) أشرنا فقط إلى بعض مظاهر علة القلب، وبعض مظاهر صحته دون ذكر شواهدها القرآنية؛ لأن هذا ليس مقصدنا هنا، وجاءت الإشارة إلى هذا الأمر توفية لتناولنا لأدوات الاستقبال عند المسلم، وما يعتبر بها من تحولات .

وتتأكد بعد ذلك سيادة القلب فى توجيه المرء؛ فالقلب هو الملك، والأعضاء جنوده، وهو المضغة التى يتوقف عليها صلاح الجسد أو فساده؛ يقول الرسول الكريم ﷺ: « ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب»[1] .

والمتأمل فى المنهج الإسلامى يجد الحرص على نقاء البيئة المحيطة بالإنسان منذ ولادته ليبقى استقباله طيبًا نقيًا[2] ونقاء البيئة يتبعه نقاء الرسالة أو الرسائل التى تُبث عن طريق السمع والبصر إلى الفؤاد، وحدوث عملية التكوين والتلقى، يشارك السمع والبصر فيه بنصيب أعظم، والمحصلة هى المشاركة فى بناء القلب أو هدمه، وفى صحته أو مرضه، يقول الحق سبحانه: ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨].

فمداخل الصلاح أو الفساد إلى القلب قد أضحت واضحة، ومتأثرة بنقاء البيئة من عمل الشيطان أو تلوثها به؛ ولأن هذه المداخل من السهل فك رموزها، فقد أدرك أعداء الإسلام أن الكلمة (السمع) والصورة (البصر) عليهما دور عظيم فى إفساد قلوب الأمة وسمعها وبصرها، وتحول بينها وبين سبل الهدى وذلك بالضرب على أوتار الشهوات، وإلهاب الغرائز سواء أكان ذلك بالكلمة المسموعة أم بالصورة المشاهدة، وبإغراق الأمة فى الملذات، وفنون العبث والمجون والخلاعة.

وهذا ما تفعله الإذاعات المضللة والمعادية مثل إذاعة مونت كارلو، وإذاعة صوت الإنجيل، وإذاعة صوت طنجة، وإذاعة صوت إسرائيل، وشبكة البث المسيحية (C.B.N) وما تفعله أيضًا محطات التلفاز العالمية التى تغزو بلاد العالم الإسلامى، وتبث من أمريكا وأوربا. وهذه كلها تلوث البيئة المسلمة شكلاً وموضوعًا.. ومثال شبكة الأخبار الأمريكية (C.N.N) والقناة الفرنسية (C.F.I) والشبكة العالمية الأمريكية.

ويحزن المرء عندما يجد أن البيئة المسلمة قد لوثت إعلاميًا داخلها، ويبدأ بناؤها، قبل وبعد أن غزيت من خارجها بالكلمة المسمومة والصورة المنحرفة المضللة، ولمواجهة

---

(١) متفق عليه عن النعمان بن بشير ﷺ .

(٢) لعل تصديق ذلك يتضح فى توجيه الرسول الكريم ﷺ بأن يكون الأذان للصلاة ثم الإقامة هما أول ما يطرق أذنى الطفل من مؤثرات صوتية بيئية خارجية ليطالع قلبه صوت الحق والرشاد والاطمئنان والسكينة.

هذا الغزو القوى فلابد من وجود إعلام إسلامى مستنير، يتعهد الطفل منذ ولادته، وحتى مماته، فلا خدش للحياء العام، ولا انتهاك للأخلاق والآداب، ولا نشر للأدب المكشوف، ولا إعاقة لعملية الإنتاج، ولا ملء لفراغ الناشئة باللهو.

فالخطاب الإعلامى الإسلامى يكون له دور تعليمى إرشادى دفاعى، يتصدى للغزو الثقافى ولملوثات الأفكار والقيم، ويجمع كلمة المسلمين، ويرشد الصحوة الإسلامية القائمة فى أنحاء العالم الإسلامى، ويقدم ما يخدم الإسلام والمسلمين، وينشر الدعوة الإسلامية، ويبرز دور الحضارة الإسلامية فى مختلف فروع العلم والمعرفة فى إثراء الحضارة الإنسانية، ويبتعد عن مجالات الجدل الدينى، ويعدل سلوك الجماهير ليتلاءم مع جوهر الإسلام، ويقضى على المعتقدات الباطلة بين البعض، ويناقش القضايا الإسلامية المعاصرة، ويصحح صورة الإسلام فى أذهان العالم، ويواجه الحملات الإعلامية المضادة للإسلام، ويُعرف الرأى العام العالمى بموقف الإسلام من ذوى الأديان الأخرى.

كما أنه يعرف بالعقيدة الإسلامية كعبادة ومنهاج حياة، ويؤكد على القيم الإسلامية، ويناقش أحوال المسلمين، ويذيع أخبارهم، ويبرز دور الشخصيات الإسلامية فى جميع المجالات، ويُفند الدعايات الكاذبة والافتراءات المغرضة التى شنها أعداء الإسلام، ويقدم الحلول لمشكلات المسلمين، ولا يخضع لسيطرة الإعلام الغربى، ولا ينساق وراء الشعارات، ولا يخدع بالإشاعات، ولا يشغل بسفاسف الأمور، ولا بتوافه الأحداث والموضوعات(*).

ومواصفات الخطاب الإعلامى الإسلامى – التى عرضنا لها آنفًا – مأخوذة من مضامين المنهج العام للإعلام والدعوة فى الإسلام؛ الذى يمكن إيجازه فى بساطة ووضوح المتمثل فى وضوح العقيدة، وخلوها من التعقيدات، وسهولة استيعابها وشرحها، ومخاطبتها للفطرة الصحيحة.

ويمكن إيجازه أيضًا فى كونه يحترم العقل الإنسانى، ويقدر الفكر البشرى، ويدعو إلى التأمل والتدبر. كما أنه يقوم على الحقائق اليقينية وعلى العلم الصحيح. ويقوم كذلك

(*) ليس بوسع منصف إنكار دور الإذاعات الإسلامية المتخصصة فى بعض البلدان العربية والإسلامية فى الحرص على أن يكون خطابها الإعلامى نابعًا من الإسلام شكلاً وموضوعًا، وعلى هذا فالإذاعات الإسلامية المسموعة لها دور لا يُنكر فى الدعوة الإسلامية.. لكنا فى المقابل نرصد غياب الإذاعة الإسلامية المرئية من الساحة الإعلامية، وثمّ توجهات مُعلنة الآن بالدعوة الجادة إلى إقامة قناة (محطة) إسلامية مرئية – فى مواجهة الغزو الثقافى – نرجو أن تظهر فى واقعنا قريبًا.

على التسامح الفكرى والتحلى بحسن الخلق واللين، والإعراض عن اللغو فى الحديث؛ فضلاً عما فصلناه قبل هذا تحت عنوان (سمات منهجه ﷺ فى الدعوة إلى الله تعالى).

وبعد .. فإن تناولنا المتقدم للجانب الإعلامى ومضامينه فى الإسلام أردنا به إبراز جانب مهم من مضامين الحضارة الإسلامية؛ الذى يؤهلها لدور نهضوى عظيم، ويعد أحد منطلقات البعث الحضارى المنشود، وهذا الجانب يعكس تكامل الرؤية الإسلامية فى الإعلام، والتبليغ، والدعوة، وفى شمولية المنهج الإعلامى فى الإسلام مما لا نجد له نظيرًا فى الديانات والشرائع الأخرى.

ونستطيع إيجاز الرؤية التكاملية للإعلام فى الإسلام فى النقاط التالية:

١- استوجبت الرسالة الإسلامية الجامعة وجود مجالات متنوعة للتبليغ والإعلام، بصورة فردية، وبصورة جماعية. وتركز جهد أنبياء الله فى تبليغ رسالتهم، وإيصال رسالة التوحيد إلى الناس جميعًا.

٢- تنوعت قنوات الاتصال فى عهد النبوة لدى الرسول الكريم ﷺ فكان ذلك بالاتصال الشخصى عن طريق إرسال الوفود والرسل والرسائل، أو بالاتصال الجماعى عن طريق مجالس العلم والخطب والوعظ.

٣- اختلف مضمون خطبه ورسائله ووعظه ﷺ باختلاف حالة المتلقى، فهى تبدأ بالدعوة إلى التوحيد، ثم تتجه إلى أمور تشريعية وأخلاقية وتصحيحية. كما راعت رسائله ﷺ عقيدة المتلقى، وكيفية دعوته إلى دين الله تعالى كما اختلف فحوى الرسالة الإعلامية النبوية فى خارج الجزيرة العربية عن فحواها بداخل المجتمع الوليد، على نحو ما قدمنا من شواهد على ذلك.

٤- الدعوة إلى الله تعالى هى الركيزة الأساسية فى النظرية الإعلامية فى الإسلام وقد بين القرآن الكريم منهج الدعوة الإسلامية الصحيحة؛ روحًا وأسلوبًا ومضمونًا. كما ضمن الأدب منهجًا حركيًا شاملاً فى كيفية الدعوة إلى الله تعالى.

٥- فى حياة الرسول الكريم ﷺ المثال الأعظم للدعوة إلى الله تعالى، والإعلام بها، وذلك فى حرصه على التبليغ بشتى الوسائل، وفى صلابته وقوة إرادته، ورسوخه فى الحق،

وفى قناعته بدعوته، وإيمانه بقوة رسالته ومستقبلها المنتظر، وفى إيمانه ﷺ بتبليغ دعوته، وفى جهاده فى دعوة المشركين. وفى استغلاله لكل مناسبة لدعوة قومه.

٦- ثم سمات متعددة لمنهجه ﷺ فى الدعوة إلى الله تعالى، وفى الإعلام بدين الله ومن ذلك: الدعوة إلى مكارم الأخلاق، والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، والموازنة فى أمور الدعوة، وفى التزام التيسير.. إلى غير ذلك مما أشير إليه.

٧- ارتكز المنهج الإسلامى فى الدعوة على أمانة الكلمة، وعلى خطورتها، وذلك بالدعوة إلى القول الحسن، وإقدار الكلمة الحسنة، والتحذير من الكلمة الخبيثة. وهذا المنهج واضح فى القرآن الكريم، وفى الحديث النبوى، وفى أقوال الصحابة وعملهم.

٨- أقدر المنهج الإعلامى فى الإسلام دور الحواس فى التلقى، وذلك فى السمع والبصر، وهما النافذتان على قلب المرء الذى بصلاحه يصلح البدن كله، وبفساده يفسد الجسد كله.. وهذا ما يتضح فى حديث القرآن الكريم عن السمع والبصر والفؤاد، وعما يعرض للقلب من تحولات بالخير أو الشر، بالصلاح أو الفساد.

٩- للخطاب الإعلامى الإسلامى دور تعليمى وإرشادى ودفاعى، فهو يجمع كلمة المسلمين ويرشد الصحوة الإسلامية، ويتصدى للغزو الثقافى، ويحصن الأمة، وله مواصفاته المأخوذة من مضامين المنهج العام فى الدعوة إلى الله تعالى.

١٠- للقائم بالاتصال أو الداعية إلى الله تعالى أجر عظيم عند الله تعالى؛ ولذا عليه ألا يبغى من وراء رسالته جزاء ماديًا ومعنويًا ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٠٩]. وعليه أن يطلب العون من الله تعالى دومًا، ولا يجنح إلى الإغراء والاستجابة إلى الفتنة، ولا يميل إلى الخصومة فى شأن الدعوة، ويتميز بسعة الصدر، والتسامح، وعدم الاستهزاء بالآخرين والتزام الأمانة والصدق فى توصيل رسالته.

وختامًا لهذا الفصل – فإنه لا سبيل إلى استعادة هذه الأمة لمجدها إلا باستلهام عظمة دينها، والعودة إلى مضامينه الحضارية، وتبليغ الدعوة إلى الله لكل الناس، وغرس حقائق الوحى ونور السماء فى نفوس الناس، وانتشالهم من أوهام المادة، وإزالة حجبات الظلام عن عيونهم وقلوبهم، والأخذ بأيديهم إلى هداية الله تعالى.

وعلى هذه الأمة دور عظيم ومسئولية أعظم فى نشر دين الله تعالى وفى تبليغ الإسلام إلى كل العالم، وانطلاق هذه الدعوة مرهون بيقظة أهلها، وإدراكهم للدور المنوط بهم أداؤه، ويقينهم بأن النصرة من الله تعالى لن تكون إلا بالرجوع إلى دينه، ولن يصلح أمر هذه الأمة فى آخرها إلا بما صلح به أولها ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥].

تم بحمد الله تعالى

قائمة المراجـــع

١ - القرآن الكريم، وكتب أسباب النزول.

٢ - إبراهيم بن موسى الشطبى: الاعتصام، القاهرة، دار التحرير للطباعة، ١٩٧٠.

٣ - أبو بكر الجزائرى: منهاج المسلم، القاهرة، ١٩٧٨.

٤ - أحمد بن حنبل: المسند، دار المعارف، مصر، ١٩٥٤.

٥ - سيد سابق: فقه السنة، الجزء الثانى، القاهرة، مكتبة المسلم، د. ت..

٦ - عبد المجيد محمود: هدى الإسلام فى الزواج والفرقة، القاهرة، مكتبة الشباب، ١٩٧٢.

٧ - على حسب الله: أصول التشريع الإسلامى، دار المعارف، مصر، ١٩٥٩.

٨ - على بن حزم الظواهرى: الإحكام فى أصول الأحكام، القاهرة، ١٩٧٨.

٩ - الفيروز أبادى: لسان العرب، بيروت، دار صادر، د.ت.

١٠ - مالك بن أنس: الموطأ، القاهرة، كتاب الشعب، ١٩٧٠.

١١ - محمد أبو زهرة: الأحوال الشخصية، القاهرة، دار الفكر العربى، د. ت.

١٢ - محمد البلتاجى: فى أحكام الأسرة - دراسة مقارنة -، الكويت، مكتبة دار العروبة.

١٣ - محمد بن أبى بكر بن القيم الجوزى: زاد المعاد فى هدى خير العباد، القاهرة، المطبعة المصرية، ١٩٧٢.

١٤ - محمد بن إسماعيل البخارى: صحيح البخارى، القاهرة، الشعب، د.ت.

١٥ - محمد بن على بن محمد الشوكانى: نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار (شرح منتقى الأخبار)، بيروت، دار الجيل، ١٩٧٣.

١٦ - محمد فؤاد عبد الباقى: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، القاهرة دار الحديث، ١٩٨١.

١٧ - مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم، القاهرة، مطبعة محمد على صبيح، د.ت.

١٨ - يحيى بن شرف النووى: رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، المنصورة، مطبعة الإيمان، ١٩٩٢.